

# الملك عبدالعزيز - رحمه الله -

## وخصائص الدولة ، والقائد ، والدين ، والرقعة ، والأمة

[ ٣ - ٥ ]

أبو

عبدالرحمن

ابن عقيل

الظاهري\*

\* محمد بن عمر

ابن عبدالرحمن

العقيل .

- ماجستير من

المعهد العالي

للقضاء في

التفسير ، وله

مشاركات كثيرة

في التأليف

والمقالة والإذاعة .

وعضو مجمع

اللغة العربية

بالقاهرة ،

ورئيس الشؤون

الثقافية بجمعية

الثقافة والفنون ،

ورئيس تحرير

مجلة التوباد ،

وأول رئيس

للنادي الأدبي

بالرياض .

من خصائص عبدالعزيز التاريخية وبعض أعماله الإيجابية:  
لقد ألمحت إلى أن اجتماع الخصائص مقياس الندرة في  
العبقرية، وهذا ملمح جذاب لكل من تناول تاريخ عبدالعزيز من  
عربي وأجنبي ؛ فهذه الجاذبية جعلتهم يعبرون بأسلوب أدبي فني  
بعيد عن جفاف المؤرخ (ولا سيما الذين شاهدوه من الأجانب) ..  
واحتواء الشخصية الجذابة بمثل تلك الأساليب الفنية يعني صدق  
الواقع الذي يُنطق الأصم .. اسمعوا ما قاله الرحالة الإنجليزي  
كنت دليمرز : «ومن النادر أن تجد رجلاً تجمعت فيه المزايا التي  
تجمعت في عبدالعزيز<sup>(١)</sup> ؛ فهو جندي موفق ظافر، ومصلح مبدع  
مبتكر، وتقي ورع صالح، وإنساني لطيف مهذب، وجواد سخي  
سمح، وراسخ وطيد متين، وذكي حذق لبيب، وشجاع جريئ

(١) قال أبو عبدالرحمن : ههنا تقدم علامة التفريع « ؛ » على علامة

التقسيم « : » .

الطبعة

السنة السابعة

العددان : السابع والثامن والعشرون

رمضان - ذو الحجة ١٤٢٥هـ

أكتوبر ٢٠٠٤م - يناير ٢٠٠٥م

مقتحم .. وفوق كل هذا نبيل في تواضعه ، نبيل في احتشامه» (١) .

ورؤية عبدالعزيز التي أسلفتها - المنبثقة من نشأته وتاريخ أجداده - أعلنها في وقت مبكر إعلان الفقيه المجتهد : فقال (رحمه الله ، وجزاه عنا خيراً) في تموز سنة ١٩٢٤م مخاطباً وفدًا من علماء الهند : «أعترف أمام الله وأمام كل المسلمين بأنني لا أريد إلا العودة إلى دين الإسلام الصحيح البعيد عن العقائد الوثنية التي ليست من الإسلام في شيء، وأننا نعود في كل شيء لأحكام القرآن الكريم وللسنة، ونحاول أن نعيش كما عاش الخلفاء الراشدون .. وكل ما نطمح فيه أن يتحد العلماء المسلمون اتحاداً قوياً متيناً، وأن يخضع العالم الإسلامي خضوعاً تاماً لأحكام القرآن والسنة» .. إن عبدالعزيز داخل دولته وخارجها جمع بين حسن العمل وحسن النية والطموح ، ولقي رباً كريماً جواداً رحمياً لن يبغسه عمله ، وندعو الله أن يضاعف أجره ، وأن يعامله بإحسانه . وكان رحمه الله من رواد الجامعة الإسلامية منذ المؤتمر الذي دعا إلى عقده بمكة المكرمة في حزيران سنة ١٩٢٦م .. ومن المؤلف - في تفكير العصر .. ودعك من الواقع العملي - : أن عنصر الأخلاق في السياسة ضعيف جداً ، ولكن التاريخ شهد بأن عبدالعزيز يأسره شرف الكلمة ، ووازع الخلق والدين ؛ فقد كان كريماً مع جيرانه، وفيأ لمعاهديه .. يصبر صبر من منحه الله القدرة حتى يبلغ العذر .. صبر على مالا يرضيه التزاماً بما أمضاه على نفسه من عهد ووعد في مصالحات الحرب، وأرجأ حسم بعض المواقف والمعكرات رجاء صلاح الحال .

والميزة الرابعة (٢) من ميزات الدور الثالث وقائده الملك عبدالعزيز رحمه الله خصيصةٌ لذات القائد استلمحها الشاعر ابن عثيمين بقوله :

(١) ابن سعود سيد نجد وملك الحجاز ص ١٤ - ١٥ .

(٢) مضت الميزة الثالثة .

## خبينة الله في الأكوان أظهرها

### وللمهمين في تأخيرها شان

إن عبدالعزيز بخصائصه الفردية والتاريخية التي أهّلته للقيادة هو مجموع المواصفات التي تريدها الأمة لِمَلء الفراغ باستعادة تاريخ محبوب محبوب يحنون إليه على الرغم من أن آخر عهدهم به حرب أهلية أكلت الأخضر واليابس ؛ وبهذا يبعد اعتبار استيلاء عبدالعزيز على الرياض مجرد مغامرة شابٍّ يائس في عملية فدائية انتحارية ؛ بل هو مغامرة شجاعة من شديد الوثوق بالله ثم بال جماهير التي تعيش حنيناً مكبوتاً .. وحسبك بخصائص عبدالعزيز الفردية أن في أبطال المغامرة من هو أسن منه ويشاركه في الإرث.. إن حادثة المصمك ، وفتح الرياض أعجوبة بلا ريب ؛ ولكنها ليست مبتورة من سياقها التاريخي الحقيقي الذي يجعل تصورهما تصور أسطورة لمغامرة صبي راهن على حياته وحياة رفاقه في احتلال العاصمة الثانية لآل رشيد .. وهم قلة .. كلا .. إن عبدالعزيز في طور الفتوة وليس صبياً .. ولم يأت برفاقه القلة لمحاربة الرياض المدينة ، وإنما جاء للقضاء على عمال ابن رشيد الذين هم في الرياض قلة واثقاً بأن أهل العارض كلهم ومن يليهم جنده ؛ لأنه لم يأت إليهم طارئاً ، وإنما جاء ممثلاً للتاريخ الذي قلت : إنه التاريخ الحبيب المحبوب الذي يحن إليه أهل نجد .. ولا سيما وسطها وجنوبها .

ومن البدهي أن مَنَّ التاريخ البشري يعني الأحداث التي يصنعها البشر، أو الأقدار التي يجريها الله عليهم في كوكبهم .. <sup>(١)</sup> ويُراعى فيها أنها غير رتيبة ولا يومية عادية في حياتهم ؛ فطلوع الشمس من مشرقها يومياً ليس حدثاً تاريخياً،

(١) ما بعد النقطتين قيد لما قبلهما ، وقد قررت في مباحثي عن علامات الترقيم أنه لا يُفصل بالشولة بين الجملة وقيدها .

ولكنَّ كسوفها حدث تاريخي .. وما استجد في حياة المجتمع من سكون أو فوضى حدث تاريخي، وما استجد في حياة الفرد من ولادة ولد أو موت والد حدث تاريخي تزداد أهميته بمقدار أثره في المجتمع .. واللب للمتن التاريخي أحداث الحرب والسلم والاقتصاد والثقافة في حياة الدول والمجتمعات .

ولا خلاف في أن للمتغيّرات التاريخية بواعث وعوامل مادية ومعنوية وقدرية .. وإنما الخلاف في الفرد التاريخي «البطل» هل هو أحد البواعث والعوامل في المتغيّر التاريخي أم لا ؟!.. وفردية عبدالعزيز تتكون من الخصائص التالية:

١ - أنه ليس طارئاً على الغاية التي سعى من أجلها؛ بل هو سليل الوراثة لبُناة تاريخ بلاده .. وهذه خصيصة ساعدته في تسهيل مهمته .. ولو جاء عبقرى في حجم عبدالعزيز ليست له هذه الدالة التاريخية لتعذرت مهمته أو تعسرت.

٢ - أنه عاين ساعات التأرجح في تاريخ بيته بأم عينه، وذاق في أول وعيه ونمو مداركه ومواهبه مرارة الغبن والظلم، وأبكى قلبه مصاب والده، وعمه عبدالله، وأبناء عمه، ورأى أن السياسة لا أخلاق لها، وأن العامل بالأمس للدولة، والمتشرّف بالولاء لها : يعمل بجدّ وأمانة لبناء مجده هو، والتنكر لمن أوصلوه لِسُدَّة<sup>(١)</sup> المسؤولية .. وحَفِظَ مشاهدةً بالسند الصحيح المتصل عن أبيه وأخيه

(١) السُدَّة تعني في استعمال المعاصرين القمة والمنتهى والتوسط الذي يعني الإحاطة .. ولكل هذا أصل من اللغة كما يبين من هذا السياق للزيدي .. قال في تاج العروس ١١/٥ : «والسدة بالضم باب الدار والبيت كما في التهذيب .. يقال : رأيته قاعداً بسدة بابه ، وبسدة داره . وقيل .. هي السقيفة .. وقال أبو سعيد : السدة في كلام العرب : الفناء .. يقال لبيت الشعر وما أشبهه .. والذين تكلموا بالسدة لم يكونوا أصحاب أبنية ولا مدر ، ومن جعل السدة كالصفة ، أو كالسقيفة ؛ فإنما فسّره على مذهب أهل الحضر . وقال أبو عمرو : السدة كالصُفَّة تكون بين يدي البيت ، والظلة تكون لباب الدار .. جمعها سُدَد بضم ففتح .. وفي بعض النسخ: بضمّتين .

وعمه وأخته وعمته وأبناء عمه وحاشية أهله : عن جده الأقرب : عن جده الأعلى كلَّ تاريخه المحلي ومتغيراته بما فيها من إيجابيات وسلبيات .  
وليس مُعاشُ التاريخ الراضعُ لبانه كمن يتحرّاه بصيغ التمرّيز الشفهية ،  
والفلتات المكتوبة .

٢ - الوعي السياسي الفريد للمتغيرات في العالم بين مجتمع عامي ، وزعامات محلية ، وزعامات مجاورة لا تعي بالمتغير العالمي بإطلاق ، أو يكون وعيها مبتسراً بأقل من مقدار الحاجة !! .

قال الدبلوماسي البريطاني السير ريدر بولارد: «إن أهم صفة تثير الاهتمام في الملك عبدالعزيز كانت حكمته السياسية، وقد مارسها أولاً مع رجال العشائر المتشبهين برأيهم المستعجلين، ثم نمت مع اتساع مسؤولياته ؛ حتى أصبحت قادرة على مواجهة أي موقف ، وكان يتابع العلاقات الدولية عن كثب .. وفي الثلاثينيات كان يُعير اهتماماً للإذاعات العربية في لندن والقاهرة وإيطاليا وألمانيا، وكانت هذه

== وفي حديث أبي الدرداء [رضي الله عنه] : أنه أتى باب معاوية [رضي الله عنه] فلم يأذن له .. فقال : من يَغْشَ سُدَّ السلطان يَقم ويقعد .

وسدة المسجد الأعظم ما حوله من الرواق .. وسمي أبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمن الأعور الكوفي التابعي المشهور السدي (روى عن أنس، وابن عباس ، وغيرهما - رضي الله عنهم -) : لبّيعه المقانع والخُمُر على باب مسجد الكوفة .. وفي الصحاح : في سدة مسجد الكوفة ، وهي ما يَبقى من الطاق المسدود .. قال أبو عبيد : وبعضهم يجعل السدة الباب نفسه ، ومنه حديث أم سلمة [رضي الله عنها] : أنها قالت لعائشة [رضي الله عنها] لما أرادت الخروج إلى البصرة : إنك سدة بين رسول الله ﷺ وبين أمته .. أي باب .  
وقال الذهبي : لقعوده في باب جامع الكوفة [يعني نسبة إسماعيل السُدِّي] .. وقال الليث : السدي رجل منسوب إلى قبيلة من اليمن .. قال الأزهري : إن أراد إسماعيل السدي فقد غلط .. لا يعرف في قبائل اليمن سد ولا سدة .. وأغرب أبو الفتح اليعمري ؛ فقال : كان يجلس في المدينة في مكان يقال له : السد ؛ فنسب إليه» .

تُلْتَقَطُ وتسجل له كتابة، ثم تُقرأ له بعد صلاة المغرب، وكان يسمى هذه «التايمس» الخاصة به .. وبها وبوسائل أخرى (خاصة قصاصات الصحف التي تصل من ممثليه في الخارج) : كان يتمكن من الإحاطة بالشؤون الدولية أفضل مما كان يستطيعه الكثيرون من الأوروبيين المتعلمين .

ويؤكد المعنى نفسه الوزير الأمريكي المفوض برت فيش ؛ فيقول : « أثارت إعجابي إحاطته بالمسائل الدولية ؛ حتى لكأنه في وسط الجو الأوروبي، وفي محيط السياسة العالمية .

ومع الدهاء الذي تقتضيه الدبلوماسية والتعامل الدولي فقد قدم عبدالعزيز قيمه الإسلامية ؛ فلم يسمح لنفسه أن يكذب قط ؛ بل كان يقول ما يمكن أن يقال صدقاً ، ويسكت عما لا يحب قوله .. وهذا منتهى الحكمة والسياسة والأخلاق» .

ويقول مندوب شركة أولشتاين الدكتور فون وايزل بعد أن زار الملك عبدالعزيز للمرة الثانية ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م : «وفي ابن سعود ميزة أخرى ، وهي أنه كريم صادق ، وقد جادلته مرتين في شؤون مختلفة كان بعضها دقيقاً جداً؛ فلم ألحظ أنه يُلْبَسُ الباطل ثوب الحق .. كان سياسياً أحياناً في أجوبته ؛ فلا يقول كل ما يعرفه، ولكنه لم يتلفظ بكلمة واحدة غير صادقة .. والظاهر أن هذا شأنه مع الجميع ؛ لأنني لما قابلت القناصل الأجانب في جدة قالوا لي : «إذا قال لك ابن سعود شيئاً فتق أنه يقول لك الحقيقة التي لا تشوبها شائبة».

ويشبه النمساوي د فون وايزل الملك عبدالعزيز بِمُنَشِيّ الوحدة الألمانية بسمارك ؛ فيقول : «حسبي أن أقول : إني معجب به ؛ فقد خيّل إليّ وأنا أحادثه أنني أمام بسمارك مُنَشِيّ الوحدة الألمانية، ولا أظنكم تخالون أنني أبالغ في القول» .

ويقول الرحالة الأمريكي كينث وليمز مبيناً ثقة ابن سعود في قدرته

السياسية : «كان للصلات الطيبة بين الإنجليز وابن سعود ثمرتها في شتاء ١٩١٣ - ١٩١٤م : فقد تمت هذه المعاهدة بين الإمبراطورية البريطانية وابن سعود .. هذه المعاهدة التي عرف كيف ينتفع بها في صد الخصوم عنه ، وقد استعان عند وضعها بحذقه السياسي واختباراته الشخصية ، وكان يقول : إنه في وسعه تجديد هذه المعاهدة تجديداً مستمراً إلى أن تتمشى مع كل مطامحه وأحلامه ، وإلى أن تنطبق على كل رغائبه ومراميه ، وأنه قد اتصل مع الإنجليز ، وأصبحت له سلطة على البحار والمدن الساحلية : فلا مناص من أن يكون سياسياً أدهى من الإنجليز» .

وفي شهادة أخرى له يقول وليمز: أؤكِّدُ بلا أي تحفظ أن نجاح الملك عبدالعزيز المستمر، ورزاقته، وحكمته هي أمور تُقدَّرُ في بريطانيا كل التقدير؛ فالملك كما لاحظ لأول وهلة كل من الرئيس روزفلت والمستر تشرشل (وكلاهما لا يستهان بحكمه) : هو من أبرز رجال هذا العصر ، وحصن من حصون العالم الحديث»<sup>(١)</sup> .

٤ - الجبلية الفردية الأبية لشخصية بُنِيَتْ على الطموح، وعدم الرضى بالعيش - لو كان راغداً - عوضاً عن المجد الأسري ، والاستعداد الفردي .. وهو إباء وطموح يبلغ أقصى المدى إذا علمنا أن عيشه لم يكن راغداً، وأنه : في تطويع بين قبائل شرق الجزيرة وزعامات الساحل ، وعطاء مقطَّع بشرط المنة والمساومة .. بل كان والده الإمام عبدالرحمن في فاقة شديدة في الوقت الذي كان فيه لأخيه عبدالله وأبناء أخيه سعود قليل من الأمر قبل مغادرتهم دار ملكهم<sup>(٢)</sup> .

### ثمار الحق التاريخي :

قال أبو عبدالرحمن : دارس التاريخ يحلُّ وحرية في أن ينظر إلى عبدالعزيز بادئ ذي بدء على أن باعَثَ حركته هموم فردية ، ونفع شخصي ؛ لأنه خرج من رقعة

(١) كل النصوص الخمسة من كتاب الملك عبدالعزيز رؤية عالمية ص ٥١٢ - ٥١٦ .

(٢) انظر الحاشية آخر البحث رقم (٤) .

ذات تاريخ جهوري يديرها أجداده إلى جده القريب فيصل : فعمه عبدالله ، فعمه سعود ، فأبوه ، وأبناء عمه سعود .. خرج من هذا العز الباذخ ، والمجد الشامخ مجرداً مسلوباً لا يملك قوت يومه !! .. ليس على الدارس أن يشعر هذا الشعور ما دام عبدالعزيز غادر بلاده في هذا المناخ التاريخي ، وما دام تغيير هذا المناخ هو مطلبه .. ولكن حركة عبدالعزيز جهاد استمر نصف قرن ، ويصحب كل نصر جزئي تغيير وإصلاح ، ثم بعد الجهاد المستمر استقرت الأوضاع على نفع جماعي ، وإزالة هموم اجتماعية .. إذن انكشفت النية بأنها بريئة من كل نزعة أنانية ، وكثيراً ما ردّد عبدالعزيز المثل العامي المشهور : «السيرة تُبيّن السريّة» كما أسلفت ذلك ، ومن بيان السريّة ما ذكره معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر .. قال حفظه الله عن أسباب حب الرعية لعبدالعزیز: «أما حب شعبه له فمن منطلق اعترافهم بالفضل الذي ساقه الله لهم على يديه؛ فأمنوا بعد الخوف، واغتتوا بعد الفقر ، وتعلموا بعد الجهل . ولقد آخى رحمه الله بينهم بعد أن كانوا متناحرين ، وقربّ بينهم بعد أن كانوا متباعدين ، وجعل منهم أمة واحدة متماسكة .. أحبه أولئك الذين عاصروا عهد الخوف ، وانعدام الأمان .. ذلك العهد الذي كان لا يستطيع فيه المرء الانتقال من بلد إلى بلد إلا تحت راية حرب، ولا يسلم فيه بلد من غارة قوي على ضعيف في اجتياح يأكل الأخضر واليابس دون خوف من الله ولا وجل .. وكان هذا بسبب ضعف الحكم المركزي ، وتقسيم المناطق إلى قوى مفتعلة أنهكت الناس ، وأرعبتهم، وأياستهم من حياة هائلة كريمة ؛ ولهذا لما نصره الله ، وأخذ بيده ، ورأوا ما كسبوا على يده: أحبوه ، واستماتوا معه في سعيه لإقرار الأمن ، وزرع الطمأنينة ، والقضاء على الفوضى التي كانت سائدة ، والحياة المزرية التي كان يحيها الناس .

ومن أراد أن يعرف ما كانت عليه الحال في تلك الحقب السوداء، والأزمان



الداكنة : فليرجع إلى كتاب الكاتب المعروف محمد بن عبدالله بن بليهد (١) : ففيه ثلاث مذكرات ، وسيرى نموذجاً مختصراً لتلك الحياة التعسة التي كان الناس يحيونها في ظل الفوضى ، واختفاء الأمن ، والعبث السائد ، وعدم وجود حكومة مسيطرة حكيمة» (٢) .

قال أبو عبد الرحمن : وعن هذه الحالة قال الدكتور نفسه : «وكان الأمن مفقوداً داخل المدن ، والطرق مخوفة ، وكان المسافرون لا يسافرون إلا جماعات ؛ خوفاً من سطوة القبائل ، وتعدّيهم .. وكان من يحج ويعود يُعتبر مولوداً جديداً ؛ لأن السرقة والنهب متركّز على طريق الحاج ، وتكاد تكون حياة أهل الصحارى التي تمر بها الحجاج قائمة على نهب الحجاج وسرقتهم .. حتى أن (٣) أمير الحاج يأتي معه بِسَرِيَّةٍ مستعدة ، ومع هذا فأطراف القافلة لا تسلم من النهب والاعتراض .. وكانت الحال الاقتصادية في وضع سيئ (٤) ؛ لعدم انتظام تبادل السلع ، وبيع المحصول .. وكان المحصول نفسه يتعرض للأذى ؛ نتيجة الوقائع التي تقوم بين البادية والحاضرة ، وبين الحاضرة أنفسهم ؛ مما جعل الناس في شظف من العيش يبحثون عنه في أبسط صوره ، وكثرت الهجرات إلى الهند والعراق والشام ؛ لطلب الرزق ، والبحث عن الأمان والسلامة أحياناً .. واقتصر التعليم على أبسط صوره من التعليم الديني ، ولم يكن الوقت يسمح بالتعمق فيه إلا لأفراد قلائل .. كانوا سرج المجتمع

(١) صحيح الأخبار ٢٧٢/٥ فما بعدها [الخويطر] .

(٢) يوم وملك ص ١٤٢ - ١٤٤ .

(٣) همزة «أن» مفتوحة ؛ لأن ما قبلها حرف جر يعني بلوغ الغاية .

(٤) الرسم المعتاد «سيئ» .. وإنما تُرَجَّح النبرة في مثل «جزئية» ؛ لجمال اتصال حروف الكلمة ، وههنا الرسم الصحيح الأرجح رسم صورة الحرف كاملة كما أثبتته .

في ظلمة كانت مسيطرة ، وكان طالب العلم يرحل بعيداً عن وطنه طلباً للعلم ، وبحثاً عن مظانه .. يتحمل المشاق والغربة في سبيل ذلك» (١) .

وقال عن دوره رحمه الله في حماية الرعية من الأذى : «كان يحمي الرعية من الأذى ، ويأخذ على يد العابث، ويزن ظرف المذنب معه قسوةً وليناً.. قد يتساهل إن كان الأمر دون الأذى العام ، ودون حدود الله، ويتشدد إذا خشي أن يكون الذنب ظاهرة ربما تتفشى، أو أن التساهل قد يغري بالاقتداء السيئ، أو التماذي في هذا الجانب، ويهتم لأمر يظنه غيره صغيراً ؛ لأنه مسؤولٌ يدرك مالا يدركه غيره، ويفض النظر عن أمر يعجب من حوله ؛ لتجاهله له» (٢) .

قال أبو عبدالرحمن : ومن نماذج إصلاحه - على الرغم من ضيق ذات اليد ، وشح الموارد - ما تحدث به الدكتور عبدالله محمد المكي صاحب ومدير جريدة صوت الحق في بومبي ، ومؤلف كتاب تاريخ الهند العام .. قال : «وقيض الله لنا نحن في الحجاز حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز الفيصل آل سعود ؛ فسار بالأمة العربية سيراً حكيماً ، وتمكن بتوفيق الله تعالى من تقليص ظلٍ كثيرٍ من الخرافات والبدع في المملكة العربية السعودية ، ونشر لواء العدل والأمان في طول البلاد وعرضها ، ونال شرف خدمة الحرمين الشريفين (٣) ، وأرسل البعثات العلمية إلى الخارج بقدر ما سمحت به الظروف ، ورجع بعضهم يحمل شهادة الكفاءة والنجاح .. وهذا مما يشرح الصدور ، ويسر خواطر المسلمين أجمعين .. ووجه عنايته الكبرى نحو توفير الراحة لوفود بيت الله الحرام ، وزُور مسجده المصطفى

(١) يوم وملك ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) يوم وملك ص ٦٦ - ٦٧ .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : والآن أصبح أول لقب رسمي للملك المفدى فهد أيده الله .

عليه أفضل التحية وأزكى السلام : فأقام لهم وسائل الصحة ومظلات تقيهم الحر والبرد أثناء الطريق ، ووفر لهم الماء ، وجعل لهم مراكز لإسعاف المرضى بالأدوية الضرورية مجاناً ، ووضع نظاماً خاصاً للمطوفين وما يتبعهم تعميماً لراحة الحجاج .. ونحن حديثو عهد بما كانت عليه الحال في الحكومات السابقة ، وكانت الفوضى مضرب المثل في الحجاز ؛ فصلحت الآن بقدر ما تسمح به الحال ، وأصدرت حكومة جلالته رسالة طبعتها بمكة المكرمة في أغلب اللغات الشرقية ، وهي بمثابة دليل للحاج يجد فيها كل ما يحتاج إليه أثناء إقامته بالحجاز ، وهذه مآثرة جليلة لها قدرها» (١) .

وقال الدكتور محمود بك حمدي حمودة (الذي سمّته مجلة الفتح وزير الصحة بالحجاز) في حديث صرّح به لجريدة الأيام الدمشقية - وقد زار وطنه دمشق ، وسألته عن الأوضاع الصحية في الحجاز - : «دخلت جيوش جلالته الملك عبدالعزيز السعود الحجاز ، وكنت مع الجيش الفاتح ؛ ففوّض جلالته إليّ الإشراف على إدارة الصحة والإسعاف ؛ فوجدت أن البلاد بحاجة إلى كل شيء ، وليس هنالك عمل إلا الجزئي البسيط .. وكان في مكة مستشفى فيه عدة غرف من الورق استُحضر في زمن مدير الصحة الحجازية أيام الترك قاسم بك عز الدين ، وهي لا تردُّ حرّاً ولا تدفع قرّاً .. وينقصه شيء كثير من الأدوات والآلات الفنية والأسرّة للمرضى والأبنية اللازمة ؛ فكان أول ما انصرفت العناية إليه زيادة الأبنية ؛ لإيواء المرضى من الحجاج وأبناء البلاد ، وتوفير الآلات والأدوات الفنية المطلوبة ، واستحضار العقاقير والأدوية اللازمة، وإنشاء الفروع الضرورية لمختلف الأمراض .. وكان الحجاز حتى ذلك العهد لا يعرف البلاط المصنوع ؛ بل إن أراضي الغرف جميعها من الطبطب

(١) مجلة الفتح العدد ٢٢٧ في ١٥/٩/١٣٥١هـ ص ١١ و ١٤ .

(المصنوع من رماد قصر الملك) .. وهذا لا يصح أن يكون في مستشفى أو غرفة جراحية على الأخص ؛ فاستحضرنا معملاً خاصاً لصنع البلاط ، وورصفنا به جميع الغرف القديمة والمستحدثة ، ووسعنا المستشفى ببناء جناح كبير فيه، وإزالة جميع الغرف التي كانت مبنية من الكرتون .

وكاد يتم الآن الجناحان اللذان تبرع بإنشائهما - على الطراز الفني الحديث - المثري المعروف الحاج مصطفى بك عز الدين أحد أعيان طرابلس الشام ، وخصّص أحدهما بشعبة أشعة رونتكن (X) وما يتعلق بها ، وخص الجناح الثاني بشعبة الجراحة والأمراض النسائية .. ووضعنا أساساً لمستشفى كبير في ظاهر مكة ، وفي أفضل مكان من الناحية الصحية وجودة المناخ .. <sup>(١)</sup> وإني أؤمل أن يكون هذا المستشفى هو المركز الرئيس لجميع مستشفيات الحكومة في المستقبل .

وكان للحكومة في منى وعرفات مستشفى واحد صغير وقديم من بقايا عهد الترك يُتخذ مركزاً لتداوي المرضى من الحجاج ، وللأعمال الصحية ؛ فقمنا بإنشاء مراكز صحية تبدأ في مكة ، وتنتهي في عرفات .. وهذه المراكز صنعت من الخشب ؛ ليجد الحجاج ما يستظلون به من الحر ، وفي كل مركز طبيب وممرضون والعقاقير اللازمة للإسعافات الضرورية ، كما يجد فيها الحاج الماء الكافي يبل به غليله ، وكل مركز من هذه المراكز يقوم بعمل صحي كامل .

وبهذه الوسيلة أصبح الحجاج يستفيدون من مراجعة الطبيب حالاً، وتستفيد إدارة الصحة من الاطلاع على حالة الحجيج الصحية، وعلى كل ما يحدث من الوقائع الصحية كضربات الشمس وسواها بين مكة وعرفات، ويبلغ عدد هذه المراكز ثمانية.. يبدأ العمل فيها من السادس من ذي الحجة حتى آخر موسم الحج ..

(١) النقطتان لاستئناف الكلام ، وشغل بقية السطر بدلاً من ختمه بنقطة وابتداء سطر جديد .

وجعلنا في عرفات نفسها مركزاً صحياً كبيراً مجهزاً بالأطباء والصيادلة والمرضى وجميع العقاقير ، وهذا المركز يُرسل هيئات صحية لمراقبة الحالة في مخيم الحجاج، وإجراء الإسعافات الواجبة .

وفي مكة مستشفى غير المستشفى المركزي يسمى «مستشفى القبان» أو «المستشفى الأهلي» يقوم بالخدمات الصحية ، ويكون فيه في غير الموسم طبيب وصيدلي وكل ما يُحتاج إليه من الأدوية ؛ وحباً لراحة الحجاج ، ومنعاً للحوادث الكثيرة التي كانت تقع بين مكة وجدة، ولداواة البدو والأهلين في غير الموسم : قامت حكومة جلالة الملك ببناء مستشفى في «بحرة» يستوعب ٥٠ سريراً ، وحُفر فيه بئر ماء تتضح ماء عذباً غزيراً .. وبهذه الوسيلة أمكن إنشاء سبيل كثير لسقاية الحجاج ، وغرس حديقة حول المستشفى .

وفي جدة مستشفى لا بأس به وبموقعه، وقد قمنا بترميمه وإصلاحه؛ ليكون كالمستشفيات الحديثة، وأسَّسنا فيه شعبة خاصة للجراحين وأنواع اللقاح.

وفي جدة أيضاً مصلحة الصحة البحرية والكرنتينات، وأمام جدة جزيرة صغيرة هي «جزيرة أبو سعد» فيها مصح كبير .. وقد ألفت الحكومة هيئة صحية فنية عند استيلائها على الحجاز كشفت على هذا المصح، وشاهدت جميع نواقصه، وأمر جلالة الملك حالاً باستكمالها .. وهذا المصح مستعد أتم استعداد في حالة ظهور مرض من الأمراض السارية لإجراء جميع الأعمال الفنية من تطهير وغيره مهما كانت؛ لأنه جُهِّز بجميع الأدوات والآلات الفنية الحديثة.

وأقمنا مركزاً صحياً في «ينبع»، ومثله في «الوجه» شمالاً، وفي «القنفذة»، و«جيزان» من بلاد عسير جنوباً<sup>(١)</sup> .. وفي «الطائف» مستشفى ومركز صحي يقوم

(١) إنما هي من بلاد المخلاف السليماني .

بمداواة المرضى من الأهلين وإيوائهم ، وبإسعاف الحجاج القادمين من اليمن .  
أما المدينة المنورة ففيها مستشفى كبير ، وأسسنا فيها مراكز صحية أيام زيارة  
الروضة النبوية المطهرة ، وأسسنا أيضاً خارج المدينة مركزاً صحياً للمراقبة إبَّان  
وجود حجٍّ برِّيٍّ .

أما نجد فأننا أول طبيب موظف أقام فيها، وفيها اليوم مراكز صحية في  
الرياض والحسا والقطيف .. هذا عدا البعثة الطبية التي ترافق الركب الملكي في  
تنقلاته في أنحاء نجد، والأهلون يُقبلون على التداوي أعظم إقبال<sup>(١)</sup>.

قال أبو عبدالرحمن : وفي أحد تذييلات كشك عزا إلى بعض الدراسات  
الحديثة الزعم بأن بداية أمر عبدالعزيز كانت بلا هدف ديني ؛ بل لطلب ملك  
أجداده .. ثم عقب بأن عبدالعزيز اكتشف فيما بعد دوره الحقيقي ! .

قال أبو عبدالرحمن: يصح هذا الزعم لو لم يكن مُلك أجداده هو أهم  
الأهداف الدينية ، ويصح هذا الزعم لو أن عبدالعزيز اكتفى بكرسي الزعامة ،  
وحكم حكماً عشائرياً ، وتخلّى عن الأهداف التي قام عليها امتداد تاريخ أجداده ..  
ولقد وُجد من الأبالسة العوام من يشير على عبدالعزيز بأن لا يُعلّم شعبه ؛ حتى لا  
يطمح ؛ ليبقى الجهل والتخلف عاملَ خنوع كما حصل في بعض البلاد المجاورة ..  
ولكن عبدالعزيز في سباق مع الزمن .. يشفع كل نصر عسكري بتمدين للمجتمع ،  
ونشرٍ للتعليم على مختلف مستوياته ومظاهره من الكتاتيب إلى المدارس النظامية ؛  
بل كان يبعث لأهل القرى من يقنعهم بابتعاث أولادهم للتعليم ، وكان في أوقافه  
وأوقاف أجداده ريع للتعليم .. بل كانت دور الأيتام موجودة في عهد الإمام فيصل  
ابن تركي رحمهما الله .. فلما أفاء الله عليه لم يجعل التعليم مجانياً فحسب ؛ بل

(١) مجلة الفتح العدد ٣١٤ في ١٣/٦/١٣٥١ هـ ص ١٢ - ١٣ .

وضع له الحوافز والمغريات مادياً ومعنوياً .. إن جهاده في فرض التعليم على الأميين العوام الذين يريدون أولادهم للحرف البدائية في مستوى جهاده العسكري .. نضر الله ذلك الوجه ، ورحم شيبته ، ونور ضريحه ؛ فلولا الله ثم عبدالعزيز لبقينا على حرف الآباء الساذجة ، ولبقينا في ظلمة الجهل .. فهل من شاكر أبوة هذا الزعيم القائم لنا مقام الأب والأستاذ ؟ .. كان في آخر حياته يُدْفُّ على عربية وقد أَوْ لَمْ لطلبة العلم ، وكان يستقبلهم إلى المائدة ، وكان مما حفظ لي شيخي محمد بن عبد الرحمن بن داوود رحمه الله قوله : يا عيالي قمت إن شاء الله بما يجب عليّ ، وأدّى أبأؤكم دورهم في الجهاد ، وبقي دوركم أنتم في تحصيل العلم وتعليمه اه .. ولا يخلو زعيم من مناوئ، ومن شائئ له بحق أو بباطل ، ومن متقول عليه ..<sup>(١)</sup> إلا عبدالعزيز ، فلم يستطع أعداؤه وأعداء بيته وتاريخه وسلفيته أن ينالوا جهاده وبرنامجه السياسي بكلمة تعيبه ؛ بل أذعن لإخلاص الشاء عليه كبار المثقفين كالعقاد وهيكل وكل من حج واعتمر ؛ لما رأوا واقع حاله وحال رعيته .. بل اعتبر وندربيل أن إنجاز عبدالعزيز هو النموذج الوحيد الذي تحقق في الواقع لكل دعاة القومية والوطنية ، ولكل رواد الجامعة الإسلامية ثم الجامعة العربية .. وهذا صحيح ؛ فمثلاً مصر أوسع وأحفل بلد بالزعامات القومية والوطنية .. على أن وحدة أرض مصر دولة ووطنية لم تتغير .. كانت قطراً واحداً ، ودولة واحدة قبل النهضة الوطنية والقومية .. وعبدالعزيز جاء ولم يكن الوطن واحداً ، ولا الدولة واحدة ، ولا التتميات قائمة .. ودعك من أن تكون منتظمة ، فوحدها بدعاية الإسلام ؛ فتحققت القومية والوطنية ثمرة ونتيجة .. وكانت المزايدة بالقومية والوطنية مع هذا معدومة في كل أوجه إعلامه .

(١) لما بُعِدَ المستثنى منه أصبح المستثنى مفصلاً عن المستثنى منه ، وهذا يُشبه الانقطاع ؛ فتناسب علامة الحذف والاستئناف .

ولما قسّم فيلبي أدوار الدولة السعودية ذكر أنها في عهد سعود الأول دينية بحتة، وفي عهد الإمام تركي سياسية بحتة، وفي عهد الملك عبدالعزيز دينية سياسية كما أسلفت .. وهو تقسيم مردود، فما السياسية في لحن فيلبي إلا الامتداد الجغرافي وتوحيد السلطة ، وكل ذلك موجود بين مدٍّ وجزر في الأدوار السياسية لآل سعود .. وما الدين إلا حكم الشريعة للحياة العامة ، وصدور الدولة عنه ؛ بحيث تكون جهاز حماية له وتنفيذ .. وكل هذا أيضاً موجود في الأدوار السعودية بمقدار نفوذ الدولة وقوتها وامتدادها .. لقد نقل الدبلوماسي باركر هارت وكيل وزارة الخارجية الأمريكية الأسبق، وأول قنصل أمريكي في الظهران قول الملك عبدالعزيز له : «دولتنا قائمة على الإسلام، ولا شيء أهم عندنا من عقيدتنا وعاداتنا»<sup>(١)</sup>.

وإنما ميزوا عبدالعزيز بميزة الجمع بين الحركتين ؛ لأنهما استقرتا معاً في عهده وفي عقبه في عصر تواصلت فيه الدول ، وكان للعالم موافق دولية ، ولأنه أراد أقصى ما يكون من الامتداد الجغرافي ، وأقصى ما يكون من قوة ونفوذ ووحدة السلطة للدين والدولة ، واستقرار ذلك ؛ فأتم الله له ما أراد .

وهذان الهدفان لا مطلب لأسلافه غيرهما إلا أن الرعيّة لم تستقر؛ بل كانت في مدٍّ وجزر .. وكانت سيادة الدين والدولة ثابتة قائمة فيما في أيديهم من الرقعة.

### خصائص عبدالعزيز الجبليّة والاكتسابية :

٥ - المواهب الشخصية الفردية التي جبله ربه عليها<sup>(٢)</sup> ؛ فكانت له وهيبه لأنهيبة: من شجاعة، وصدق ، وتوكل على الله ، وثقة بعائدة الكفاح دون يأس .. مع الذكاء ، والخلق ، والشيمة في التعامل ، وضبط النفس ضبطاً يمنعها من الغدر ،

(١) الملك عبدالعزيز رؤية عالمية ص ٥١٠ و ٥١١ .

(٢) انظر : الموهبة الرابعة ص ٩ .



والنكاية بالخصم نكاية تتجاوز السماح مع القدرة ، والقوة البدنية ، وكونه مهيباً .. فكل هذه منحٌ ربانية .

٦ - مواهبه الفردية الاكتسابية إذ أفاد من ثقافته ومعايشته وتجاربه وتجارب غيره ، وطوّع كل ذلك للالتئام لنداء العقل والدين ، وضبط جموح النفس ، وكسر شهواتها الغضبية والمرحّية .. مع توظيف الوقت لحق النفس والأهل والرعية ، وإحكام صنعة الإدارة مركزية ولا مركزية ، وجلب الخبرات العصرية للمشورة ، ومباشرة التمددين بما لا يحيف على الجذور .

قال أبو عبدالرحمن : أسلفت أن شعار عبدالعزيز - كما صرح بذلك في إحدى خطبه - أن السيرة تُبين السريرة .. والسيرة بينت أن الغاية التي سعى إليها عبدالعزيز همُّ فردي ؛ لأن قدره الكوني قضى بأن تكون غايته في وحدة الأمة همّاً فردياً ابتداءً ؛ لأنه أحد أفراد الأسرة التي قادت ذلك التاريخ الذي أعاده عبدالعزيز بعناية الله .. والسريرة بينت أن الغاية التي سعى إليها عبدالعزيز كانت مشروطة بشرطها التاريخي السابق: بأن تكون - كما مضى -؛ لخدمة الأمة .. غاية ما هنالك أن عبدالعزيز التمس أقصى الوسع لتاريخه الجديد بأن يكون في الذروة من خدمة الأمة ؛ ولهذا تواتر تواتراً لا يقبل الشك دعاؤه المتكرر على نفسه ولها ، فاشتراط في دعائه لربه بالنصر أن يكون في نصره صلاح للإسلام وأهله .. تكرر هذا الدعاء في غير مناسبة ، وعند فئام عديدة ، ونُقِلَ ذلك نقلَ كافة .

وأحفل مناخ لتغذية مواهبه المكتسبة معيشته بين بادية بني مرة والعجمان عام ١٣٠٨هـ و ١٣٠٩هـ ، وإقامته عشر سنوات ملازماً لمجلس مبارك الصباح وما يحفل به من أعلام محلية وأجنبية ، وهو من هو في الدهاء والحيلة .

إن مغامرة عبدالعزيز في فتح الرياض مبنية على إدلال منه على أهل نجد

كافة بتاريخ البيت السعودي المحب إليهم بأنه جاء لإعادته إليهم : فنجاحه ، وامتنال القوم له ، وترحيبهم به : نجاح للتاريخ الذي جاء لإعادة صفحته .. ولو كرهت الأمة التاريخ السعودي (وقد جاء بقوة صغيرة لا تستطيع التغلب عليهم) لقالوا: لا حاجة لنا فيك؛ فقد سئمنا من تاريخ أسرتك ، وعانينا الظلم، أو الفقر، أو الجهل، أو الأمراض، أو التناحر في ظله .. ونحن تحت أمير رضيانه ، وحكومة عادلة لا نريد غير ظلها .. ولكن الواقع غير ذلك ؛ بل كانوا يترقبون منقذاً يكون من آل سعود بالذات ، وكانوا يحنون إلى نظام الحكم السعودي الذي عاشوا في عزه قوة وأمناً وجماعة وتديناً ، وكانت مخيلتهم تحلم بمثل سعود الأول ، أو تركي بن عبدالله، أو ابنه فيصل الذي أسر - بحب الناس له - القلوب والمشاعر مدة حياته المتأرجحة قوة وضعفاً .. إن عبدالعزيز غادر نجداً هو وأسرته وهو على علم يقيني وثيق بالحنين المكبوت إلى التاريخ السعودي لدى الأمة ، وهذا الحنين المكبوت من أهم مقومات العزم لدى عبدالعزيز .

ولقد شقيت الأمة بالحرب الأهلية منذ وقع التصادم بين الإمامين عبدالله وسعود ابني فيصل رحمهم الله إلى انتهاء الدور الثاني .. شقوا بهذا الصدام ثكلاً وتمزقاً وجلاء وفقرًا ووباء .. وها هم يتخلصون من هذا البلاء ، ويتحدون على ابن رشيد ؛ فلو كان التاريخ السعودي مكروهاً لديهم لكانوا يرون في التمسك بواحد من آل سعود إحداث فتنة وفُرقة ، ولكانوا يأخذون من الشقاء بالحرب الأهلية حجةً على الشقاء بالتاريخ السعودي .. ولكن الواقع خلاف هذا كله ؛ فهم يحلمون بأي صوت من آل سعود، ومشاعرهم لا تفتأ تتوثب لما ألفوه من مرحمة التاريخ السعودي.

والسيرة كشفت أن سريرة عبدالعزيز هي التي أنجزت - بعد الله - أنجح مشروع وطني قومي ديني وحدوي ؛ فكان كما قال وندربيل : أسوة للحركات القومية

الوطنية التي لم تتحقق كما تحققت لعبدالعزیز؛ فالحركة القومية والوطنية في مصر مثلاً كانت ومصر دولة واحدة في رقعته؛ فلم يتغير غير تبدل دولة بدولة ، وهكذا بقية الحركات في العالم العربي ، وليس هكذا جزيرة العرب .. بل كانت دويلات لمقاطعات مجزأة ، وكل مقاطعة يمزقها استقلال زعامات بقرية أو قبيلة ، وكانت المشاعر والنخوات عشائرية أو إقليمية ليس فيها شعور بالأمّة الواحدة والوطن الواحد؛ فجمع عبدالعزیز القُوى على هدف واحد، وجعل الأمّة واحدة، والوطن للجميع.

وكان من المتوقع أن يكون في سيادة عبدالعزیز على نجد مقنع له ؛ لأنه حقق سيادة جده فيصل .. ولكن الواقع خلاف ذلك ؛ لأن سريرته تريد وحدة الجزيرة كلها على دولة التوحيد ودينها .. وكان رحمه الله أمام قوى كبرى بسطت نفوذها على الخليج والساحل وفي الجنوب ، وارتبطت مع الزعامات المحلية بمعاهدات ومحالفات؛ فاتخذ دعوى وحدة ما وصل إليه ملك أجداده ذريعةً لحقّ تاريخي يُطالب به؛ فكان يختلس تلك القوى عسكرياً ، ويراوغها سياسياً .. وهي تتعامل مع طموحه بحذر ومحاوره؛ فصانعته على مضض في توحيد ما وحّده من تركّة أجداده، ورأت أن تخلّيه عن الأجزاء (التي ارتبطت معها بأحلاف ومعاهدات) ميزان التعامل معه، والمصانعة له .. وكل هذا هو محك المعاهدات التي أبرمتها بريطانيا معه، وهي الدولة التي كانت منذ عهد بيلي تسعى إلى تقليص نفوذ فيصل بن تركي ، وكانت قبل ذلك على يد سادلير تبارك خطوات محمد علي في محيط دون محمياتها .

ولا يوجد مفهوم الدولة لأهل الجزيرة ، ولا مفهوم الانتساب إلى رعية مفهومه في الخارج ؛ فالحاجة إلى عبدالعزیز حاجة إلى تحقيق مفهوم أمة بالوجود المعتر .

٧ - معاشته التاريخية لآلام وآمال الأمة ، وكان عبدالعزيز رجل هذه المعيشة .. عاش مصائب بيته وأمته عند تفتح مداركه ، واستوعب تاريخه المحلي بأوثق سند متصل الرواية .

وبهذه الخصيصة والتي قبلها أشربت نفسه الجد والعزيمة ، وبعدت عن الترف والركود ، ومَلَكَ الأهلية الثقافية والفكرية لتطلعه ، ومن ثم فُقِّه في الغابر والحاضر والناظر ، وكان ذا وعي بالمتغيرات العالمية حوله ، ورسم طريق الإفادة منها دون أن يسبح في التيار .. وبهاتين الخصيصتين كان يملك نظام الحكم من تدبُّنه ، وطبيعة تربيته ، ومذخور تاريخه الأسري ؛ فليس هو بحاجة إلى حضانة يستعير منها نظام الحكم ، وليس هو مضطراً إلى التخبط في التجارب ؛ بل كل نصر عسكري حققه فإنه يُتبعه مباشرة بتنفيذه برنامج الإصلاح ؛ لأنَّ عنده برنامجاً مسبقاً .

قال أبو عبدالرحمن : يُؤكِّد القول بأن الحق التاريخي لعبدالعزيز همُّ جماعي لمصلحة الأمة : أنه منذ غادر آل سعود دار ملكهم والأمة تتشوق إلى منقذٍ منهم .. وهذه الرغبة الجماهيرية حجة متكررة في عبارات عبدالعزيز وأبيه عبدالرحمن في شرح بعض المناسبات ؛ ففي شهر ربيع الآخر سنة ١٢١٨هـ كتب الإمام عبدالرحمن لنقيب البصرة قبل خروج الحملة الخطاب التالي : «ما يخفى على شريف علمكم قَدِّمُ خدماتنا للدولة العلية أدامها رب البرية من وقت الآباء والأجداد ، وتعديات ابن الرشيد على بلداننا وعشائرننا ، وظلمه إيَّاهم ، وهو ليس له حق في ذلك ؛ وبمقتضى تعدياته وظلمه أكثر علينا أهل نجد الإلحاح أن نتوجه لأجل استنقاذهم من يده ، وتوجهنا لذلك ؛ فنرجو من تفضلاتكم أن تسترحموا لنا من حضرة والي ولاية البصرة أن يكتب لابن الرشيد أن لا يتعرض لنا ، ولا يحرك أحداً من عشائره

علينا : حذراً أن تقع فتنة قتل ومقتول وسفك دماء المسلمين، وهو السبب في ذلك.. ونحن خدام الدولة قديمين ، وعلى هذا عهد الله وميثاقه أننا لا نزال نُؤدِّي الخدمات اللازمة لحضرة أمير المؤمنين أدام الله مجده وعزه، ونحامي أتم المحاماة على جميع أطراف الدولة العلية (الأحساء والقطيف وعشائرها) .. إلخ»<sup>(١)</sup> .

قال أبو عبدالرحمن : دافع مثل هذا الخطاب أن السلطة في داخل الجزيرة - التي سمحت بها بريطانيا ما بقيت لها السيادة البحرية - إنما هي لتركيا ؛ إذ هي التي أجهزت على الدولة السعودية بحملة مدحت باشا ، وساعدت إمارات التجزئة.. وكان عبدالعزيز يعرض على مبارك الصباح الرسائل التي كانت تردده من أكابر نجد ووجهائها .. وعلى الأخص رسائل أحفاد الشيخ محمد بن عبدالوهاب الذين كانوا يحثون بها الأمير عبدالعزيز على استرجاع دولة آبائه ، ويخبرونه بأن أهالي نجد كلهم بما فيهم أهالي القصيم تُؤيد آل سعود، وتتمنى اليوم الذي ينهضون فيه لاستعادة ملكهم ، وتخليصهم من الذل والهوان الذي لاقوه.

قال أبو عبدالرحمن : المحاولة الأولى للاستيلاء على الرياض كانت فيما بين يومي ١٦/١٠/١٢١٨هـ و ٢٦/١١/١٢١٨هـ ، وكان قد استولى عليها ولم يستعص عليه شيء غير عامل الأمير عبدالعزيز ابن رشيد الذي تحصن في القصر ، وامتنع عن التسليم ؛ فعزم عبدالعزيز على نسف القصر .. وفي أثناء ذلك وردت عليه الأخبار باندحار الشيخ مبارك في معركة الطرفية (الصريف)، وتمزيق جيشه ؛ فاستعجل الخروج من الرياض خشية مdahمة الأمير عبدالعزيز ابن رشيد له . ويُعتبر أمين الريحاني كابن عبدالظاهر في كتابه سيرة بيبرس ؛ لأن الملك

(١) انظر الحاشية آخر البحث رقم (٥) .

عبدالعزیز أملی علیہ جل کتابہ <sup>(۱)</sup> .. والریحانی ذکر حدوث المعركة في ۱۳۱۸/۱۱/۲۶هـ ، وتابعه ابن عبید والمحققون ، وذكر أن عبدالعزيز لما علم بوقعة الصريف أخلی الرياض التي احتلها أربعة أشهر فقط ، وعاد برجاله إلى الكويت .. ولم يذكر الريحاني كيف علم عبدالعزيز ؟ <sup>(۲)</sup> .

وما أرى أربعة الأشهر صحيحة إلا إذا حسبنا مدة المسير والمقاتلة قبل تسلق الأسوار ، وتقتصر المدة مع ذلك ؛ لأن عبدالعزيز غادر الشوكي خلال شهر رمضان أو شوال عام ۱۳۱۸هـ ، وغادر الرياض آخر ذي القعدة .

وحدثني أحد مواليد عام ۱۳۱۴هـ (وهو الشيخ محمد بن عبدالله المرشد رحمه الله) أن المدة ثلاثة أشهر .. ويظهر لي أن الصحيح قول من قال : إن عبدالعزيز حاصر الرياض أربعين يوماً ؛ وعلى هذا يكون وصوله إلى الرياض في حدود ۱۳۱۸/۱۰/۲۰هـ ، وهو التاريخ المقارب لتاريخ توجُّه ابن الصباح إلى القصيم حيث توجهت حملته في ۱۳۱۸/۱۰/۲۲هـ .

ويظهر أن الزركلي نقل نقلاً سريعاً مخلأً عن ابن عيسى عندما ذكر أن عبدالرحمن مر بالرياض؛ فقد ذكر أن المعركة سنة ۱۳۱۸هـ في ۱۷ ذي القعدة، وذكر سقوط الرياض في يد عبدالعزيز وحصاره حامية ابن رشيد في القصر .. قال ابن

(۱) قال أبو عبدالرحمن : قال فضيلة الشيخ العلامة محمد بن عبدالعزيز ابن مانع رحمه الله تعالى في تعليق له خطي على طرة كتاب تاريخ نجد لفيليبي : «كنت ليلة عند الملك عبدالعزيز رحمه الله في قصر [الصواب : في قصره ، ولعل طرح الهاء سبق قلم] بمكة ؛ فجري ذكر التاريخ ؛ فقال : لم يكتب أحد في تاريخي .. فقلت : الريحاني .. فقال : كذب الريحاني .. كتب شيئاً ما قتله له ، وقلت له شيئاً لم يكتبه» .. قال أبو عبدالرحمن : وكان تملك الشيخ ابن مانع للكتاب في ۱۲۸۳/۶/۲۶هـ ، وهو ثقة ؛ ولعل هذا يحفز الباحثين إلى الكتابة عن الريحاني وكتبه ورسائله ومقالاته .

(۲) تاريخ نجد ص ۱۱۹ .

عيسى بالحرف الواحد : «وانهزم عبدالرحمن بن فيصل إلى الرياض : فلما قرب منها أرسل إلى ابنه عبدالعزيز وأعلمه بالخبر ؛ فخرج عبدالعزيز هو ومن معه من الرياض ؛ فسار هو وأبوه ومن معهم إلى الكويت»<sup>(١)</sup> .

ويذكر يوسف يزبك أن عبدالعزيز حاصر الرياض ستين يوماً ، ثم بدأ يحضر خندقاً تحت السور؛ ليصل إلى قصر الحاكم وهو يومئذ عبدالرحمن بن ضبعان<sup>(٢)</sup> عامل ابن رشيد<sup>(٣)</sup> .

وسمعت من فضيلة الشيخ عبدالعزيز ابن الشيخ عبدالرحمن المبارك (ومن غيره) أن أبرز من كان يحضر الخندق ابن هدهود ، وأن أمير الرياض من قبل ابن رشيد يومئذ قطع إحدى يديه عندما فك ابن سعود الحصار<sup>(٤)</sup> .. واسمه سليمان ابن هدهود من أهل قرية المصانع جنوب منفوحة .. وفي دخول الرياض عام ١٢١٨هـ كانت أحدية عبدالعزيز :

يا دارنا لا ترهبين      لا بد ما نرجع عليك<sup>(٥)</sup>

وقال المؤرخ عبدالرحمن ابن ناصر<sup>(٦)</sup> : «وكان من عناية الله بالشهم الهمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن حفظه الله أن استأذن والده على الموضع المعروف

(١) تاريخ بعض الحوادث ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : الأمير في هذا الوقت عجلان وليس ابن ضبعان ، وقيل : إن ابن ضبعان مساعده .. وقد أحصيت الخلاف في ذلك في بحثي عن استرداد الرياض بالعدد الثالث من مجلة الدرعية .

(٣) ليلة المصمك ص ١٢ .

(٤) ثم وجدت هذا الخبر في كتاب : السعوديون والحل الإسلامي ص ٢٧٥ .

(٥) انظر الحاشية آخر البحث رقم (٦) .

(٦) في كتابه «عنوان السعد والمجد فيما استظرف من أخبار الحجاز واليمن ونجد» .. وهو ثلاثة أجزاء ، ولا يزال مخطوطاً .

بالشوكي أن يذهب إلى الرياض ؛ فلم يحضر هذه الواقعة الشنيعة ؛ فدخل بلد الرياض بعدما قاتلوه ، وكان أمير ابن رشيد حينئذ عجلان وابن ضبعان <sup>(١)</sup> في قصر منيع؛ فتحصنا فيه مدة حتى بلغهم خبر الواقعة؛ فانصرف عبدالعزيز وتركهم ، وكان ذلك في شهر ذي القعدة من هذه السنة» .

### عاملان خارجيان ساعدا الملك عبدالعزيز رحمه الله :

وإذا كانت مقومات وخصائص الفردية في حياة عبدالعزيز ذات أثر فعال في نجاحه ، وتحقيقه لأنجح مشروع على الصعيد الوطني القومي الديني في تاريخ العرب الحديث : فلا ننسى عاملين خارجيين وثيقين هما :

١ - أن الغاية التي تحرك عبدالعزيز من أجلها (وقد أبدتُ رفع الحرج عن كل دارس للتاريخ ينظر بادئ ذي بدء إليها على أنها نفع شخصي لعبدالعزیز، وهمُّ فردي): كانت حيوياً اجتماعياً تطلّع لها المجتمع، ويرى المجتمع والأمة فيها كسباً له وضرورة لحياته .. لا يهمه أن يكون باعثها لدى عبدالعزيز همُّ مجد فردي ، أو هم فرد عن مصير أمة ؟! .. لماذا ؟ .. لأن التاريخ الذي جاء عبدالعزيز من أجله لم يكن مكروهاً لدى الأمة، ولم يسقط برغبة من الأمة، ولم يوجد لدى الأمة باعث أيديولوجي أو إصلاحية تلتمس به تاريخاً غير التاريخ السعودي .. إنما سقط تاريخها المغتصب على الرغم منها بعد معاناتها من أجله الثكل والأمراض والمجاعات والتشرد والانقسام في الحرب الأهلية .. والذين اغتصبوا تاريخها لم يتحركوا ابتداءً بمقتضى برنامج سياسي سحر الأمة شعاره ودعايته، وإنما تحركوا باسم حماية ذي الشرعية الإمام عبدالله بن فيصل، والاحتفاظ بحقه، والتمكين لامتداده التاريخي المبني على حفظ الأمن ، وتحكيم الشرع ، وتهيئة الفرص .. ثم جاء اغتصاب التاريخ السعودي تحت هذا الترويج .

(١) قال أبو عبدالرحمن : هذا متعذر ؛ بل الأمير يومها عجلان ، وابن ضبعان مساعده .



لم يكن سقوط الدور الثاني بدافع كره أو ملل لدى المجتمع من التاريخ السعودي ، ولم يكن بباعث طموح لدى الأمة متجدد لدى القيادة الجديدة ، وإنما كان انقساماً في البيت السعودي نفسه .. كان انقساماً تلاحمت فيه خيوط مسمومة كريهة : من تهमيش ذوي الكفاءة ، والاستثناء دونهم ، وتقديم الخامل ، وتهميش من له خطر .. مع الأنانية ، وطلب السلطة ، ومقابلة ما بدر من غبن أسري أو بعض حيف بإباء فردي لا يفكر في العواقب .. كل هذا متداخل بين أطراف النزاع .. إن ما حدث - بكل المقاييس لدى الأمة - مصيبة وفتنة وبلاء لم تسع إليه ، ولم تفرح به .. وبعد هذا فالأمة مرغمة غير مختارة في تحمل مسؤولية هذه الفتنة ، غير قادرة على الحياد .. فمن كان في صف الإمام عبدالله بن فيصل فحجته أنه مع إمامه الشرعي يرى الدينونة لله بنصره مهما كان يسمع من وجهة نظر الطرف الآخر المتظلمة .. ومن كان بصف الإمام سعود يرى أنه مع أحد بُناة تاريخه المحبوب لم يخرج عنه إلى أجنبي ، وقد تجسّد له ما يسوّغ له الوقوف بهذا الصف من نقداً و جهت لذي البيعة الإمام عبدالله .. ولا سيما بعد صدور فتوى المشايخ لصالح الإمام سعود بعد استقدام الدولة التركية التي حكى لوريمر عنها - بتدبير مدحت باشا - أنها شحنت لجنودها باخرة من النبيذ والبغايا بحجة حماية أهل الأحساء من إباحية الجند !!.. وهذا أمر لا تقوى على تحمله نفسية تلك الأمة في ذلك المجتمع الطاهر . ولم يُحسم الأمر لصالح أحد الطرفين ؛ لتقول الأمة : أهلاً بأي واحد من الطرفين ؛ فنحن إذن لا نزال مع تاريخنا المحبوب .. بل استمر الانقسام ، وتضخّم ، وتقطعت أوصال الدولة ، ثم غلبت بتاريخ آخر لم تقبله ابتداءً ، ولم تأنس له بآخرة ؛ فترغب في امتداده .. بل ظلت في تطلّع إلى عودة تاريخها المحبوب .. إذن الغاية التي سعى عبدالعزيز من أجلها مطلب جماعي سواء أكانت عند عبدالعزيز همّاً فردياً ، أم

كانت بهذا التفسير عند غيره من أفراد المجتمع، أو من أفراد غير أفراد المجتمع السعودي .. إن الغاية التي تحرك عبدالعزيز من أجلها، وكانت همّاً جماعياً: لم تكن محبوبة لدى عامة المجتمع بشعور عاطفي غامض غير مفسّر، ولم تكن همّاً جماعياً حسب أغلبية تستأثر بمنفعة ذلك التاريخ المحجوب من أفراد قبيلة أو أهل إقليم .. بل كان الهمُّ الجماعي عامة، المتشوق إلى ذلك التاريخ الذي سعى عبدالعزيز إلى إعادته: همٌّ وشوق كل شرائح المجتمع؛ لأن تاريخ آل سعود منذ نشأته لم يقم على قوة قبيلة ذات منعة؛ بل كان بنو حنيفة - قبيلة آل سعود يومها - أسراً متحضرة ليست حريباً في ثقل عنزة أو شمر أو عتيبة .. ولم يقم على قوة إقليم من رقعة الجزيرة كالعارض مثلاً .. وإنما كانت قوة الدولة أخلاطاً من القبائل والأسر والأقاليم جعلت للأسرة السعودية تحقيق وحماية وحدتها القومية والوطنية والدينية (وإن لم تكن يومها - لغلبة العامية - تحسن التعبير عن الوحدات الثلاث، وإنما كانت تعلم أن المسلمين في ظل كل دولة مسلمة يجب أن يكونوا أمة واحدة، ويعون توصية الله عباده في كتابه الكريم بالاجتماع والتحذير من الفرقة وذهاب الريح، واشترط أن تكون الوحدة على ما يرضي الله) .. ولما استقر الأمر لعبدالعزیز سمع شعوراً إقليمياً ضيقاً، وسمع بشعر عامي لابن دحيم يغذي ذلك؛ فتحرى اجتماع القوم بمسجد الإمام عبدالرحمن بشارع الثميري؛ ففاجأهم بقامته الفارعة، وطلعته المحبوبة المهيبة؛ فقام خطيباً كعادته، وسوّى بالرّغام ذوي النعرة، وأسهب في شرح مكارم الأمة من كل إقليم وقُبل في بناء الوحدة، وحذّر من العودة لمثل هذه الثرثرة، ولوّح إلى مغبة النكال الشديد؛ فزال كل منغصات الوحدة من ساعتها .

والشوق إلى ذلك التاريخ المحبوب لم يكن شعوراً غامضاً إرادياً حراً غير مفسر كما أسلفت .. وإنما كان حتمية سلوكية، وإيجابية فكرية مفسراً بكل الشمعات

المضيئة في ذلك التاريخ، ومفسراً بانتفاء كل عوج أو أمّت في نظامه .. وهذا الانتفاء بميزان المعادلة بين المصالح والمساوئ، وبميزان واقعية النظرة ، وبتجربة المجتمع الراهنة وذاكرته التاريخية عن ذلك البيت السعودي ، وأنه عناصر خير في الجملة ، وأنه ذو تدين وحياء ورحمة وشيعة وشعور بهوم الأمة ، وأنه تُتال - بصيغة المجهول - منهم البغية بالوازع الذاتي عندهم أكثر مما ينالون هم بالوازع السلطاني لديهم .. ولا يعني ذلك الانتفاء الكمال المطلق؛ فإن القرون الممدوحة لم تخل من الشوائب المنغصة .. وتعني النظرة الواقعية أنهم خير الموجود فيما حولهم .. ولا تكفي منهم أمتهم بذلك ؛ بل ظلت - وستظل - تدفعهم من الحسن إلى الأحسن بالمسارّة والمعالنة ، وشروط البيعة على كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ ، وتحمل الرعية مسؤولية العمل الذي يُنَاط بها بشرطه في تنظيم القيادة .. ولم يستمر قط في تنظيم ولاية الأمر تنظيم تكرهه الرعية ويأباه الدين .. وجوهر حياة الأمة (مجتمعاً ودولةً) النظام وسيادته ؛ فما كان من النظام ذو استمرار (لانتفاء حاجة جديدة تقتضي التغيير) فقد صادف الحق بقطعية أو رجحان من ذوي النظر الشرعي ، واختصاص ذوي الخبرة ، وهذان هما ذوا المسؤولية في سن النظام<sup>(١)</sup> .. وما لم

(١) قال أبو عبد الرحمن : دورة مشروع النظام في السعودية من أجل معاني الشورى في

الإسلام، وقد تبلورت في دولة التوحيد (السعودية) على هذا النسق :

- ١ - أخذ الحكم الشرعي من علماء الأمة العدول العليمين بأحكام الشريعة حفظاً واستنباطاً .
- ٢ - أخذ أحكام الوقائع من ذوي الاختصاص من مهندسين وأطباء .. إلخ .
- ٣ - استشارة ذوي الحل والعقد من الوجهاء والزعماء وأصحاب المال بشرط الدين والأمانة والولاء .

٤ - استشارة عامة الناس - بما فيهم الذمي لو كان في الرعية ذمي - في الأمور الدنيوية عامة النفع إذا لزم الأمر كإنشاء مرفق أو إلغائه .. وتقل هذه الحاجة بقدر ما يكون لدى الدولة من ثراء من رجال الخبرة والاختصاص .

يكتب له الاستمرار من التنظيم - على قلته - كشف التطبيق مرجوحية بعض عناصره ؛ فتداركته رعاية الله ثم عناية ولي الأمر باللوائح ، والتعديلات .  
ومن الشمعات المضيئة في التاريخ الذي سعى عبدالعزيز إلى إعادته، وأيدته الأمة بالقبول؛ فبسطت يد البيعة : تمخضت الحقيقة بأن ذلك التاريخ منذ نشأته قائم في الشرح التثري والتطبيق العملي السلوكي على العبودية لله بأداء حقه الشرعي، والوفاء برغبة الرعية في أمور معاشها ، وتحقيق القوة لحماية هذين الهدفين ؛ فندبت العلماء الموجودين ، وأكملت نصابهم بالتعليم في المساجد ثم المدارس ؛ فجعلت عليهم مسؤولية تحقيق العبودية لله فتوى وقضاءً ووعظاً وحسبة وتديساً وإعلاماً .. وكان الحكم قبل التاريخ السعودي ، وخلال الانفلات آخر الدور الأول والثاني لهوى الفرد من زعيم أهل قرية أو شيخ بادية .. لا حضور للقضاء والفتوى والحسبة ألبتة .

== ٥ - اليقين بأن إشراك الناس خير وأبقى ؛ لأن ما لا يُقبل رأي الناس فيه من التنازل عن بعض حقوق الله وحدوده وأحكام دينه متروك للعلماء الربانيين ، مستدرك باستدراك علماء آخرين .. وأما أمور الناس فيقوم الإشراك فيها بأنواع الخبرات الاستشارية في كل جهاز حكومي ، وبالدستور الإسلامي الواحد ، وبخضوع أنظمة الدولة للملاحظات ذوي الخبرة النبوية ، وذوي العلم الشرعي ؛ فمشروع كل نظام يبدأ عن حاجة باقتراح خبرات استشارية متعددة ، ثم يعمم على الوزارات والدوائر الرسمية لإبداء الملاحظات من خلال أجهزتها الاستشارية .. وفي قمة هذه الخبرات الأجهزة الشرعية .. ثم يظل النظام تحت طائلة الملاحظة الجماعية والفردية ؛ ولهذا تكثر التعميمات تعديلاً في الأنظمة واللوائح التفسيرية التي يسبقها لوائح إيضاحية .. وإذا قامت الحياة على دستور إسلامي يرضى به المؤمن ، ويُرغم عليه الملحد في مجتمع مسلم ، وقامت على نظام يحكم الحياة - وهو يمثل هذه المشاركة الجماعية - : فكل دعوى بعد ذلك للمشاركة الجماعية فإنما هي غوغائية تهويلية ، وكل استدراك (إن صح) فهو جزئي .

وأما تحقيق مصلحة الرعية مما جعله الله إلى نظرها فكان تواشجاً من الاجتهاد الفردي الذي يملكه العقل المجرب للقائد ، ومن الشورى ذات الأنماط: فمجلس القائد مع خاصة شيوخ القبائل وأمراء القرى - وهي مجالس علنية مشتركة - مجالس شورى .. ومع أهل الحرف والمهارات وأهل القضاء والفتوى مجالس شورى في بيان الواقعة وحكمها ومنفعتها، وسلوك المجتمع مبني على النظام ، والتنظيم نتيجة شورى من أهل الشريعة والخبرة .

والقوة قوتان : قوة عسكرية للردع والحماية ، وقوة تنمية تظهر بها قوة المجتمع واستعداد الفرد؛ فقام التاريخ السعودي على إسقاط الثارات والنعرات، وجمع القدرات الحربية على راية واحدة، وشعور بأمة واحدة. وكان تهجير البادية بأخرة . وقام التاريخ السعودي على تنمية الفرد بتعليمه ، وحماية أمنه ليعمل ، وتحقيق تكافؤ الفرص .. وعندما دخل الملك عبدالعزيز الرياض وجلس للبيعة أعلن للقوم هدف بناء القوتين : فالفلاح يذهب إلى حرثه ، وطالب العلم إلى حلقاته .. إلخ .. إلخ .. «والزكري» - وهو العاقل من العمل ذو القوة البدنية - يلتحق بخدمة الدولة .. ذكر ذلك محمد آل الشيخ في ضميمة له لم تطبع بعد .

قال أبو عبد الرحمن : ولقد أسلفت في الكلام عن خصائص الملك عبدالعزيز في تربيته الأسرية العربية الإسلامية ؛ فهو ، أُسرياً ، سليل مجد وملك ؛ فتربيته تربية كبراء عظماء ، وهو ، عريباً ، من العروبة في الذروة يحمل بين جنبيه كل همّ عربي دون تعمّل ، وهو ، إسلامياً ، تربية مشايخ في مجتمع متدين ، وملكه السليب يُسمّى دولة التوحيد أكثر مما يسمى ملك آل سعود ، والدين باعث تاريخ أجداده وشرط وجوده واستمراره .. وهذه التربية ذات الأبعاد الثلاثة من أهم مقومات الشخصية لعبدالعزیز ؛ لأنها عربون تعامل الأمة معه ؛ لأن الأمة المشردة المكبوتة لا

تثق بعودة تاريخها الحبيب لديها ، ولا تراهن على المغامرة في سبيله إلا بقيادة عَلمٍ من أعلام ذلك التاريخ يُمثِّل طموح ذلك التاريخ : بأن يكون شديد الحماس للدين ؛ لأن ذلك التاريخ هو تاريخ دولة التوحيد ، وبأن يكون العَلمُ من البيت السعودي ذاته ومن تربية كبرائه وعظمائه ؛ لأن الأمة لم تَقْدُ لغير هذا الحي من آل سعود ، ولم تقم لهم دولة على غير هذا البيت ، وذاقت عز الوحدة والأمن والقوة والرغد وسيادة الدين في ظله ، وجربت العزائم والمغانم في ظل نوادر من ذلك البيت من أمثال عبدالعزيز الأول ، وسعود الأول ، وفيصل ، وعبدالله ؛ فلن يقوِّي عزمها ، ويسهِّل لها أمر المغامرة سوى واحد من أمثال أولئك يملأ الفراغ ؛ فكان عبدالعزيز هو الأعجوبة التي منَّ الله بها لملء الفراغ .

٢ - أن المنطقة تشكو فراغاً ، ولو كان إقليم نجد يدين بالسلطة لحكومة واحدة؛ لما كانت حاجة عبدالعزيز استبدالَ حكومة جديدة بحكومة تاريخية.. كلا .. بل الأمور غير مستقرة؛ فمناخات البادية باقية، والثارات في البوادي فيما بينهم، والثارات لدى أهل القرى لا تزال تتجدد، وعناصر التمدين لا تزال معدومة، والتعليم في فئة محصورة لا يتجاوز الكتابات لمجرد الهجاء، وسلطة الشرع غائبة، ودور العلماء أقل من كونه ثانوياً، والسلطة مجزأة في نجد والحجاز والأحساء والشرقية والجنوب ، وكافة طبقات المجتمع الأمي العامي تعي أوجه الفراغ هذه باستثناء ما يتعلق بضرورة الوحدة ؛ فهذا كائن في وعي الخاصة من العلماء والمتقنين على قلتهم، وذوي المتابعة التاريخية .

إن التاريخ السعودي ليس غلبةً عشائرية مجردة، وإنما هو إرادة شرائح المجتمع الموحدة الهدف على الدين وخصائص الجزيرة العربية الشرعية.. مع اختلاف الأنساب والنزعات الإقليمية المؤذية التي قضى عليها التاريخ السعودي؛ ولهذا كان من نظام هذا البلد الصريح أن لا تُمنح الجنسية لكافر ؛ لأن من

خصائص جزيرة العرب الشرعية أن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان (ولعل دولتنا وحيدة في هذه الظاهرة) ، وأن لا تُبنى الكنائس في المملكة : لأنه لا يجتمع في جزيرة العرب دينان أيضاً ، وأن لا يدخل الحرم كافر ، وأن لا تُتَّكَّس راية المملكة في أي ظرف ، وأن لا تكون السعودية طرفاً في موقف مخز كالانفتاح على إسرائيل .. ومن الاستماتة في الحفاظ على خصائص الجزيرة ، وملك الرحمة : التصميم على إقامة الحدود على الرغم من الضغوط باسم حقوق الإنسان ، وإقامة شعيرة الحج بملايين الفداء على الرغم من الضغوط باسم حق الحيوان <sup>(١)</sup> .

### رأي هيكل حول هموم عبدالعزيز العربية والإسلامية ومناقشته :

قال أبو عبدالرحمن : من قواميس السياسة المعاصرة الأستاذ محمد حسنين هيكل ، وهو شاهد حقبة من الزمن خطيرة ، وليس هو بحاجة إلى جاه أو سمعة أو مال ؛ فقد بلغ الذروة من كل ذلك .. وإنما حق الأمة عليه أن يصارح أمته بأسرار التخبطات السياسية التي يركن إلى صفها حتى هذا اليوم؛ لأن العمر قصير، والزاد قليل؛ ولأن مصارحته إضاءة وتبصير للأمة، وتكفير لما أحدثه الميل العاطفي من المراوغة والغمغة السياسية<sup>(٢)</sup> .. وكان طموح القارئ إذا تناول محمد حسنين هيكل علماً مثل الملك عبدالعزيز رحمه الله : أن يتحدث بكل صدق وصراحة بعيداً عن ترسبات عهد ١٩٥٢م، ولقد أحسن بعض الإحسان في تناوله لعبدالعزيز في مقدمته لكتاب «لسرة الليل هتف الصباح»<sup>(٣)</sup> ؛ فمجرد التفاتته لتاريخنا السعودي

(١) انظر الحاشية آخر البحث رقم (٧) .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : سمعتُ هذه الأمنية من فم صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز آل سعود حفظه الله .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : هذا الكتاب مادة ثرية جديدة للمؤرخ السعودي مع ما صاحبها من إضاءات لمؤلفها معالي الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري ، وقد أبنت عن رأيي في هذا السفر النفيس أيام صدره بمساهمة في جريدة الشرق الأوسط .

بركة تاريخية نعتز بها .. إلا أنه أبدى عناصر ذات ثُلَمٍ لم تسترها ألمعية المؤرخ الكبير للسياسة المعاصرة، وجعل فيها مدخلاً لمغالطات أعداء الأمة من الشعوبيين .. وهذه هي العناصر :

١ - أن عبدالعزيز آل سعود أنشأ دولة ونظاماً ، وأن ذلك حدثٌ عهدت به المقادير ، وأن تأسيس الدول وإنشاء النظم يحتاج إلى إرادة تحرك التفاعل الكيميائي بين الجغرافيا والتاريخ .. ووصَفَ التفاعل بأنه خلاقٌ، وبأن أولئك المنشئين المؤسِّسين لا يتكبرون بسهولة .

قال أبو عبدالرحمن : هذه أبجديات يعرفها العامي ، ولا يحتاج إلى شهادة من الحس التاريخي المعاصر لهيكل .. إلا أن العامي أرهف حساً من هيكل ؛ لأنه لا ينسب هذه الظاهرة الباهرة إلى مقادير مجهولة الفاعل، ولا يرى في مَجِيئِ عبدالعزيز تحريكاً خلاقاً للتفاعل بين الجغرافيا والتاريخ ؛ بل جاء ليعيد التاريخ إلى ظرفه المكاني، وهو جغرافية الجزيرة العربية .. لم يَفِدْ لها بفكرٍ دخیلٍ يقتضي معاناة لتفاعل خلاق !! .. وإنما فجَّرَ عبدالعزيز التفاعل الفعال في الكوادر البشرية من قطاع يخصف النعل ، ويرتق الثوب ، ويخز القربة ، ويسحج الخشب - في إطار من الأمية والعامية والجهل والمرض والفقر والخوف - إلى طلائع تستورد الميزة من التمدن وتحذف المجل، وتسعى إلى امتثالها تعليمياً وتعلماً بعبقريّة فكرية ، أو مهارة تلقينية .. كلُّ ميسّر لما خلق له .

٢ - أن فعل المباشرة للتأسيس والإنشاء يتأتى من ضرورة طبيعية وإنسانية في جزيرة العرب التي سادت فيها الفوضى قروناً طويلة !! .. وهي رقعة ذات اهتمام عالمي - أي لا تقبل الاستمرار في الفوضى - .. إذن فعل عبدالعزيز نوع من الحتمية التاريخية !! .



قال أبو عبد الرحمن : أما الواقع التاريخي فلم تسد الفوضى في الجزيرة قبل عبدالعزيز قروناً طويلة .. وإنما كان قبل الملك عبدالعزيز : عبدالعزيز بن محمد ، وسعود ، وعبد الله ، وتركي ، وفيصل ، وعبد الله الذين وطدوا الأمن أزيد من قرنين .. وإنما اختل الأمن فترات فيما بين عام ١٢٨٨هـ ووقت توحيد الملك عبدالعزيز للمملكة ، ومنذ عام ١٣١٩هـ والأمن أخذ يمد رواقه الذهبي .

وأما الاهتمام العالمي الذي تُضَفِّرُ مرائره الأماكن المقدسة ، وطرق التجارة المشتركة : فقد كان هذا هو واقع قلب الجزيرة منذ عهد بني أمية وبني العباس والعثمانيين .. إلى الدويلات العقيلية بالشرق انتهاء بآل عريعر الخالدين .. إلى دولة الأشراف بالغرب .. إلى الحملات الظالمة منذ محمد علي ، وخورشيد ، ومدحت باشا عام ١٢٨٨هـ ، ومباركات سادير ولويس بيلي .. ما فُكَّرَ هؤلاء أن يحكموها حكماً مباشراً يمد ويؤهل طاقاتها للعمل المثمر ، ويقيم فيها دين الله عقيدة وشرعاً .. وبَعِيدٌ أن يفكر الأشرار هذا التفكير ولو باسم دعوى التمدين العالمية التي حملتها ثورة فرنسا تحت شعار حقوق الإنسان !! .. لا يهم أولئك أن يُعبد في جزيرة العرب الوثن أو الرب .. ولا يهمهم عودة الجاهلية الأولى ، وتمزق القلة تحت وطأة اللصوصية ، والثارات ، والجهل ، والفقر ، وتعطيل المواهب والخبرات والمهارات .. إنما كانوا يستكفون شرها ، ويتحايلون على أمن الطرق بالخفارات والأعطيات لرؤوس العربان ، أو بالحملات العسكرية عليهم ، ثم ترتيب كفلاء عليهم «درك الطريق» مع بقاء الأعطيات والهبات لشيوخهم .. لم تصدر إرادة عالمية ألبتة (من عهد دولة بني أمية المسلمة إلى عهد دول الحلفاء الاستعمارية) بضرورة الأمن والعمران والدولة والنظام في ذلك القلب من جزيرة العرب حتى يكون عبدالعزيز حتمية تاريخية لتلك الإرادة لاقت بالمصادفة رجلاً مُؤَهَّلاً لهذه الحتمية اسمه

عبدالعزیز آل سعود .. كلا كلا .. إنما كان عبدالعزيز هبة ربانية رحمانية جاء فعله نتيجة طبيعية لثلاث ظاهرات :

أولاهن : تاريخ أجداده المحبوب المرغوب الذي أصبح حقاً للأمة المشتتة بعد وحدة دينية قومية وطنية : تجاهد من أجله ، وتستमित في سبيله .

وثانيتها : إيمان عبدالعزيز الصادق بدوره القيادي ، بل إيمانه بشرط دوره القيادي من إرضاء الرب ، وإسعاد العبد .

وثالثتها : كفاءاته الوهبية والكسبية .. ولا دخل للمصادفات في الرجعة الكبرى لذلك التاريخ المجيد ؛ بل هي العناية الربانية بإتمام مسيرة من بدأ الجهاد وصمم عليه بذكاء وعزم وإيمان وثقة بنبل الهدف ؛ ولهذا كان شعاره : السيرة تبيين السيرة ، ولا عبرة بالأقوال دون أفعال ، أو خلاف الأفعال ! .

٣ - انحياز عبدالعزيز التلقائي الفطري - في بعض الأحيان - لقضايا الأمة (وفي مقدمتها فلسطين) جزء كبير من شرعية الدور الذي قام به !! .

قال أبو عبدالرحمن : أما الفطرية فلا شك فيها ؛ لأن عبدالعزيز من صميم العرب في الذروة ، ولأنه وريث تاريخ عائدته للأمة ، ولأنه تربية أحمد ابن حنبل ، وأبي العباس ابن تيمية ، ومحمد بن عبدالوهاب رحمهم الله ؛ فلا فطرة له غير العروبة والإسلام ، ونتائجهما من الوطنية والحرص على أن تكون المعمورة كلها دار إسلام ! .. وأما التلقائية فلا تصنع دولة ووحدة في شتات وتمزق من الخوف ، والجهل ، والمرض ، والفقر ، وخمول المجتمع ، وانعدام الكوادر البشرية الفعالة .. إنما هذا العربي - الذي يُظنُّ أنه في عباءته بدوي أمي انطلق في الأشدُّ ، وترجع على عرش الوحدة كهلاً - : كتلة من المواهب ، والبصيرة ، وفراصة المؤمن ، والخبرة بعلل المجتمع وأدوائه ، والوعي المحنك بالمتغيرات العالمية من حوله ، والتحرك

المنظم المدروس المخطط له الذي كشف عن دقة تنظيمه في منجزات شتى .. جمع الله في إهابه ما جمعه لكبراء القادة ذوي النيات الخيرة على مدار التاريخ .. وأما انحياز عبدالعزيز لقضايا العرب في بعض الأحيان فلا يُمثل أي جزء - ودعك من كونه كبيراً ١ - من شرعية الدور الذي قام به .. بل الذي قام به أم الشرعيات على فرض أنه ليس للعرب أي قضية تنتظر عبدالعزيز .. وعلى فرض أنه عاجز عن المساهمة في أي دور عربي ينتظره .. إن ما هو فيه هو المساهمة الكبرى لخدمة العرب بإيجاد دولة وأمة ونظام في رقعة لا يعرف أهلها معنى «الرعية» ، ثم يؤهل هذه الرقعة الشاسعة وأهلها الممزقين - بعد تنمية طبيعية وبشرية - لتحمل أعباء الهموم العربية والإسلامية .. ثم نسأل عن «بعض الأحيان» .. نسأل عن لحظة واحدة دُعي فيها لهموم العرب فلم يستجب ؛ ليكون انحيازه بعض الأحيان ؟ .. إن عبدالعزيز أخذ زمام المبادرة (لا مجرد الاستجابة) في مؤتمراته الإسلامية ، وفي دعوته إلى التأهيل الذاتي الفلسطيني - بالدعم المالي والعسكري - ؛ لأنه يرى بقلب المؤمن ، ما يُحاك من مؤامرة عالمية .. أولٌ مظهر لها جميع جيوش عربية لا تملك إرادتها ، وإنما يقودها اللورد فلان تحت ظل العميل فلان ! .

قال أبو عبد الرحمن : وهذا لقاء مع الملك عبدالعزيز جسّد فيه همومه العربية والإسلامية ورد بهذا العنوان : «رأي جلالة الملك ابن سعود في موقف الحجاز من جيرانه ، وفي المؤتمر العربي ، وفي فكرة الحلف العربي .. حديث لجلالته مع صاحب جريدة صوت الحجاز :

س : ما الموقف الحربي على الحدود الشمالية بعد قتل ابن رفاة ، وتطهير المنطقة ؟ .  
ج : تعلمون أن الذين دفعوا ابن رفاة لم يجنوا عليه فقط ، بل جنوا على الفقراء المساكين من البدو ، فأوردوه وإياهم حتفهم حتى صاروا عبدة لكل معتبر ..

أما موقفنا في الحدود الشمالية فهو أن الأمن مخيم في كل نقطة من تلك الحدود ، وحرصنا وما يستند عليه من قوات الحدود مهياً لتأديب كل من تحدثه نفسه بتحريك شفتيه بما يخل بالأمن .. وأنتم تعلمون أن أهم ما أسعى إليه هو تأمين الأمن في جميع أنحاء بلادي حاضرتها وباديتها .. حتى في القفار المنقطعة ؛ فلا يمكن أن يذهب لأحد مال أو حلال إلا وأمرت بالتتقيب عنه حتى يؤتى بالسارق أو الجاني ؛ فيجازى حسب نص الشريعة المطهرة (ولو أدى هذا التتقيب إلى صرف كل جهد ، وطول زمن ، وصرف كل عزيز لدي) ، وهذا عندي الركن الأعظم في حياة بلادي الشاسعة المترامية الأطراف .

س : ما موقف جلالتم مع الحكومات المجاورة لبلاد جلالتم ؟ .

ج : يعلم جميع من عرفني أنني من الذين يسعون إلى السلم ، ويرجعونه مادام يؤول إلى حفظ الأرواح والأعراض وحفظ البلاد التي في وديعة من الله .. وقد درجت على هذا المبدأ حتى يومنا هذا ، وأسأل الله أن يكون هو ديدني في المستقبل أيضاً ؛ لذلك ترونني مع كل الحكومات المجاورة لبلاد الحجاز ونجد وملحقاتها بحالة سلم وصداقة صريحين لا غبار عليهما .

س : نرى كل يوم في الصحف الخارجية مقالات كثيرة عن المؤتمر العربي الذي عُقد في القدس ، وأيضاً عن المؤتمر العربي العام المنوي عقده في المستقبل القريب ؛ ونظراً لأن بلادنا تشمل القسم الأكبر في الجزيرة العربية ، ولها منزلتها الدينية والجغرافية الممتازة ، وأنها مادة العرب في أحسابهم وأنسابهم وتاريخهم اللغوي والسياسي منذ أقدم عصور التاريخ ؛ فمن الضروري أن يكون لنا اتجاه سياسي واضح يتناسب مع هذه المنزلة ؛ فأسترحم من جلالة مولاي الإدلاء برأيه العالي في هذا الموضوع الذي تشرَّب له أعناق العرب ؟ .

ج : تعلم أن أول واجب عليّ هو السير في بلادي وأهليها سيرة السلف الصالح: من حيث إيصال كل ذي حق إلى حقه ، وأن يكون الناس على اختلاف مراتبهم في رغد من العيش والأمن والسعي : لترقيّ مرافق البلاد ، وتنظيم النظم اللازمة لإدارتها سالكاً بذلك الطريق التدريجي الممكن .. أما أحوال ما يجاورها من البلاد العربية (أي المجاورة لبلادي) : فهي تهمني كما تهتم كل ناطق بالضاد ، ولا شك في أن العرب لا يمكن أن يبقوا على تباعد بعضهم عن بعض مدى الدهر ، ولا شك في أن ما يسعون إليه من عقد مؤتمر تلو آخر إن هو إلا اعتقاد راسخ تسلسل معهم منذ عرفهم التاريخ .. تغلغل في دمائهم : ليكونوا يداً واحدةً على إعادة مجد الإسلام ، وليعودوا فيكونوا العضو الصالح في المجتمع الإنساني كما كان آبائهم المثل الأعلى لتتوير البشر : في التشريع ، والعلوم ، والصناعات ، وفي كل ما يعلي شأن البشر ، ويهون احتياجاته .. وهذا الأمر حق طبيعي لهم لا يلومهم عليه أحد : فالمؤتمر العربي الذي عقد قبل أشهر كان وليد الشعور العظيم بالحاجة إلى التفاهم بين العرب ؛ للعمل على ما فيه منافعهم العامة المشتركة .. وإني أمل أن تكون أبحاث المؤتمر العربي المقبل ، وغايات أعضائه موحدة وخالصة من شوائب الشخصيات والمنافع المادية التي أخرت العرب عن الاتحاد والتضامن حتى اليوم .

س : هل ترون جلالتم أن المؤتمر العربي المقبل سيدعو إلى اتحاد العرب ، وإذا دعيتم إلى حلف عربي فهل أنتم مجيبون الدعوة ؟ .. وإني أسترحم من جلالة مولاي أن لا يرضنّ عليّ بجواب سؤالي ؛ لأنني أرى أن كل مفكر يجب أن يعرف رأي جلالتم نحو هذا الأمر ؟ .

ج : المستقبل بيد الله يُصرفه كيف شاء ، ولكنني أكرر قلبي : إنه إذا كان قرار المؤتمر هو خال من دعوى الشخصيات، ومنافع الأفراد، وجر المغانم لأناس دون

آخرين، وإهمال المثل الأعلى (ألا وهو عز الأمة العربية، وإئتلافها، وحفظ حقوق أبنائها) : فهذا أمر لا يمكن لعربي أن يتأخر عن معاضدته ، وهذا من شيم العرب في جاهليتهم وإسلامهم .. وإني مع ضعفي (ولا حول لي ولا قوة إلا بالله) أقول : إذا دعيت إلى أمر فيه عز العرب ، ويُراد به خير العرب ووحدتهم ، وكانت الدعوة إلى ذلك خالصة لوجه الله : فإنني سأكون كما هي عادتي فرداً من أفراد الأمة العربية ، ولا أهمية عندي للرتب والمناصب الجالية للغرور ، وأقدم كل معونة ممكنة في هذا السبيل»<sup>(١)</sup> .

٤ - دور عبدالعزيز : بناء دولة ، وإقامة نظام .. ثم قيادة الدولة والنظام إلى الإقليم والأمة ، ثم وضع الدولة والنظام على طريق العصر .

قال أبو عبدالرحمن : نعم حصل هذا .. نعم هذا هو الواقع الكبير .. ولكن أين هي حرارة قلم هيكल أمام هذا الحدث الجلل الباهر النادر غير العادي الذي خاض من أجله عبدالعزيز جهاداً عسكرياً وفكرياً خلال نصف قرن ١٩ .. أبهذا الإيجاز الجاف المبتسر تبارك مواهب القادة الخيّرين ؟ .

٥ - إن قال قائل (أي كما يفترض الهيكل) : «إن دور عبدالعزيز ألهمه الطموح الشخصي ، وإن العصبية كانت وقوده ، وإن السيف كان أدواته ، وإن قوى دولية كانت تتابعه» : فالجواب - أي جواب الهيكل - : «أن تلك تفاصيل : لأن أي دور يستمد قيمته (قبل أي شيء، وبعد كل شيء) من الفكرة وقوة الفعل الكامنة فيها»<sup>(٢)</sup> .. وكان جوهر الفكرة في دور الملك عبدالعزيز أن الفضاء الجغرافي التاريخي ، والمطلب الإنساني الحضاري في شبه الجزيرة وفي مطلع القرن العشرين، والداعي

(١) مجلة الفتح / العدد ٣١٢ ص ٧ في ٢٨/٥/١٣٥١هـ .

(٢) يعني قوة الفعل الكامنة في الفكرة ، وهو ما يُسمى الوجود بالقوة .

الإستراتيجي المحلي والإقليمي والعالمي .. جميعها تلح على وجود دولة ونظام .. وقد قام الرجل بهذه المهمة ، وأدار مراحلها على اختلاف الظروف، ودقة التوازنات في اقتدار يشهد بجسارة عقل وأعصاب!!.

قال أبو عبد الرحمن : إن المراد بالقوى الدولية التي كانت تتابع عبدالعزيز الدولة العظمى العجوز يومها دولة بريطانيا .. ولا أظن الدعوى تشمل حلفاءها ؛ لأن العلاقة المعتبرة يومئذ مفقودة .. إن الدولة العظمى العجوز ذات تاريخ أسود مع الوجود العربي .. لقد رصدت منذ آخر الدور السعودي الأول سادلير ولويس بيلي على السواحل الشرقية ؛ لقمع امتداد دولة التوحيد .. إن الدولة العجوز لم تكن مسرورة بعودة هذه الدولة بأوسع إهاب وأمتته .. وأقصى امتداد كان على يد عبدالعزيز !!؟ .. وربما هوّل بعضهم بثناء تشرشل على عبدالعزيز في كلامه الشفهي، وفي الجزء الثالث من مذكراته .. والأمر كله بغير هذه الصورة .. كان عبدالعزيز على وعي بالمتغيرات في العالم، وعلى علم وفراصة بإدبار تركيا وحلفائها .. وكان عبدالعزيز على علم ووحي بموازين القوى الأرضية ، والأسباب المادية التي أمر الله بالنظر فيها بتبصر ومعادلة بين المصالح والمفاسد ، والمحاسن والمساوئ .. لم ير بيده - ولا بيد العرب من حوله - ما يحمل على مواجهة دول الحلفاء الغالبة (بقدر الله الكوني) التي ستكون معسكرين (شرقياً وغربياً) .. وليس في ذاكرته ما يفريه بالنازية ، ولا بحليفاتها التي حشدت كل جهودها لتحطيم أصدق وأقوى دولة عربية إسلامية وحدوية بجزيرة العرب .. وهو يرى أن تقاسم الحلفاء للتركة يسير وفق مخططهم ، وهو يرى الجزيرة معرضة لأن تكون دويلات كدويلات ساحل عمان، وهو يرى عمال حليفة ألمانيا سيسقطون ولا بد بسقوط الحليفة!!.. وإذن تكون دائرة نفوذ إنجليزي .. ولا سيما أن العمال المتصارعين والمتهادنين ليس لهم دعاية لآمال

وآلام تشترك فيها الأمة ، وليس عند أحدهم تاريخٌ سالف جَمَعَ الأمة والدولة على الدين والمقاصد المرعية لسواد الأمة .. وإنما هو تنازع على الزعامة، ودعوة لاستبدال حكم عشائري أُمي بحكم عشائري أُمي آخر.. ورأى أن أول ما فقدته أمته من دولتها أول ما يسترده، وبعد ذلك يكون الالتحام بالهم العربي الجماعي بتحرير دويلة لا تزال تحت الحماية الأجنبية ، أو مساندة شعب انتفض على عدوه الجماعي ؛ فتعامل مع حليفة ألمانيا بما يليق بقدرها الخائب العاجز ، وبما يقتضيه ماضيها الأسود .. وتعامل مع دول الحلفاء المنتصرين المقبلين على انتصار أكبر بما تفرضه مواهبه وقدراته وتاريخه من مَلء الفراغ .. فراغ زعامات أسلفت شأنها، وزعامات بسطت صدرها للحلفاء فلم تجد عندهم إلا خيبة الظن .. ووجدت دول الحلفاء أن هذه الزعامات عاجزة عن التحدث باسم أمة تنطق باسمها، وعارية عن جموع تدين بحبها وولائها .. ودول الحلفاء منذ ذلك التاريخ لم تقهر إرادات الشعوب بمواجهة علنية، وإنما تخدعهم بدعم - أو إنشاء - زعامات دعايتها الظاهرة لهموم الأمة، وباطنها العبودية لإرادة الأجنبي .. وعبدالعزيز ليس من ابتكار الحلفاء ، ولكنه وارث تاريخ مجيد كان قبل أن يكون الحلفاء حلفاء .. وعبدالعزيز يزحف شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً بالله ثم بإرادة شعب يريده ويهيب به ؛ لإحياء دولتهم السعودية السالفة الموحدة .

إن حليفة ألمانيا وهي في حال إدبار رأت عاملها في الحجاز في وضع تعتبره خيانة للإسلام ودولته، ودول الحلفاء رأت حليفها الجديد لا يتكلم بصوت عربي إلا عن طريق فَرَضِها لزعامتة على العرب ، وتوزيع أهل بيته في أقطار ؛ فكان ذلك ؛ فلم يزدادوا من العرب والمسلمين إلا كرهاً .. ورأوا عبدالعزيز يزحف تحت إهابة عربية جماعية تحفزهم ، ورأوا العرب خارج الجزيرة يصفون له ، ويتشوفون بإعجاب إلى



أدنى كلمة تصدر منه كما في صحافة العرب ما بين ١٩٤٥-١٩٤٨ م .. وكما في كلمة كاتب العربية الكبير إبراهيم عبدالقادر المازني التي سيأتي إلحاح إليها ، وكما في كلمة الكاتب وليم شكسبير المعتمد السياسي البريطاني في الكويت في مذكراته : «إن الضباط العرب في الجيش العثماني قد قرروا بالإجماع أن يكون عبدالعزيز آل سعود زعيماً للثورة، وأنهم سيطلبون إليه قيادتها»<sup>(١)</sup> .. وأعلنت اللجنتان الوطنيتان العربيتان في كل من بيروت ودمشق أن ابن سعود زعيم تلقائي للشعوب العربية<sup>(٢)</sup> .

بل وجد عبدالعزيز في النهاية شعوراً دينياً من أحد عمال حليفة ألمانيا المولّية؛ فأبلغه بما ينتظر الأحساء من مصير مَشْؤوم خلال قسمة التركة ؛ فتحرك عبدالعزيز بأعجوبة جمعت بين الرزانة والسرية وسرعة التحرك بوثبة صاعقة مباغطة حتى كانت الأحساء (البلدة العربية المسلمة) أمام الأمر الواقع في ولاية حاكم مسلم رشيد ، ووارث مجد للأمة سليب ؛ فأعاد التاريخ إلى مجراه .. إذن عبدالعزيز لفت اهتمام بريطانيا ، وهو رحمه الله منذ وقت مبكر قد لفتت بريطانيا ودول الحلفاء نظره ؛ فحاورهم ، وعاهدهم ، وعاقدهم ، ولم يُفوّت فرصة في الاستفادة منهم معنوياً أو مادياً .. ولكن ما الثمن ؟ .. هل اقتطع لهم من جزيرة العرب نصيباً مفروضاً ؟ .. هل استورد منهم قانوناً يجعل بلاده محكومة بأيديولوجيتهم ؟ .. هل استغل سمعته العربية الإسلامية المحبوبة المسموعة ؛ ليقود جيشاً سورياً ضد المؤامرة العالمية الكبرى على فلسطين ؛ فيجعل الجيش يُذبح على مرأى ومسمع منه ، ثم يقول : ما كو أوامر ؟ .. هل سكت عن أي قضية عربية يقدر أن يساعد فيها ولو بإدلاء بكلمة ؟ .. كلا .. إنما كان يزحف لضم أطراف الرقعة باسم حقه التاريخي ،

(١) لسراة الليل ، ص ٢٥ عن جواسيس العرب لرياض نجيب الرئيس .

(٢) المصدر السابق .

وباسم أهل الرقعة الذين يستحثونه على مواصلة الزحف ، وباسم أن جزيرة العرب للعرب .. وكانوا على الرغم من زهادتهم في عميلهم بالحجاز يبعثون لعبدالعزيز عرباً وخوارجات من أمثال أمين الريحاني وفيلبي والسير كوكس ؛ ليظل سلطاناً في نجد ، ويكون للخلافة شأن آخر بالحجاز !!.

وقابل عبدالعزيز دعوى التجزئة بمراوغة عبقرية ، متين الدين مع استمرار في الزحف كما نرى في أجوبته لرسائل الريحاني وما يجري في ذلك الظرف من زحفه العسكري، وقبلت بريطانيا الأمر الواقع، وقبلته حليفاً قوياً - كما في إشارة مذكرات تشرشل - وإن كان يؤذيها قيام دولة التوحيد .. وبعد هذا كله فكل عنصر من الواقع يأبى إلا أن يكون عبدالعزيز ضد الأجنبي والاستعمار وكل تحالف صهيوني أو صليبي .. ويأبى إلا أن يكون تعامل عبدالعزيز مع أعداء الأمة - حال القوة والضعف - مشروطاً بفقهِه رباني مُسبق يكون الخاضع له فوق الشبهة ؛ لأن عبدالعزيز من العروبة في الذروة ، ولا دعاية له - تأصيلاً وتطبيقاً واعتقاداً وفعلاً وقولاً - غير ما جاء من أجله ، وهو حاكمية الإسلام للعرب والمسلمين .. وليست بريطانيا وحلفاؤها في وقت يسمح بالتدخل المباشر في شؤون العرب في عقر دارهم ومركزهم الديني الحجاز ، ومواجهة العرب والمسلمين (وهم يومها لم يتحولوا إلى غثاء محض كغثاء السيل) .. وعبدالعزيز يزحف بإرادة عربية إسلامية في الداخل ، وبمشاعر عربية وإسلامية في الخارج ، وقد حرص رحمه الله على تكريم تلك المشاعر منذ تلك اللحظة ، وصار ذلك ذمة في أعناق بنيه وأحفاده إلى هذا اليوم .. إذن مطلب بريطانيا - التي تبذل من أجله الدعم المادي والمعنوي - أن لا يخرجها دولياً ، وألا يزعجها عسكرياً بتهيج ثورات شعبية ضد محمياتها وحليفاتها .. ثم يجني ثمارها على أكثر تقدير ، ويسلم من غائلتها على أقل تقدير ؛ فعاهد

عبد العزيز ووفى<sup>(١)</sup>، وكانت المعاهدات ذات عقود معينة قابلة للتجديد أو التعديل.. وهل أمام عبدالعزيز إلا أن يرى أنه أعظم كاسب للرهان ما دام تركُّ هذه المحميات والحليفات (الصغيرة على هامش الجزيرة في السواحل، أو الكبيرة خارج الجزيرة) أقصى ما يُطلب منه؛ لأن هذه البلاد المستعمرة، أو شبه المستعمرة: لم تكن من البلاد المحكومة مباشرة في تاريخ أجداده ٩٠٠.. وما دامت تلك الحمايا الأجنبية لم تكن من صنع أجداده؛ بل حارب الإمام فيصل بن تركي رحمهما الله (وهو في منتهى الضعف مالياً وعسكرياً) الزعامات المحلية التي استجلبت الأجنبي.. وما قصة ضرب الإنجليز لقلعة الدمام عنا ببعيد في عهد الإمام فيصل.. وهذا الإمام الورع المحبوب حياً لا مثيل له بين الرعية وولاتهم: لا يدري أيصانع بريطانيا الضاربة بقوتها من الهند إلى منتهى سواحل الخليج، أم يحارب متسلطاً يدعي الأخوة في الدين وقد بعث خورشيد باشا ليتمِّم ما بدأه سلفه من تهديم ما بقي من معاقل الدين في الجزيرة ١٩٠.

وتبارى سادليز<sup>(٢)</sup> الخواجي وإبراهيم باشا المسلم (٩٩) يتصافحان على النصر، ويتفاهمان على دور كل واحد في المنطقة !! .

إذن المحميات العربية في ذل المعاهدات الأجنبية لم تكن مما يُحكم مباشرة في تاريخ آل سعود السابق، ولم يكن الارتباط الأجنبي بإبرام من القادة السعوديين

(١) أرجح كتابة الواوي واليائي بالألف مطابقةً للنطق، وليس من شأن الرسم الإملائي تعليم الصرف، وليس من شأن الصرف أن يغير قاعدة الرسم .

(٢) الكابتن ج . فورستر سادليز، له مذكرات عن رحلة عبر الجزيرة العربية من القطيف على الخليج العربي إلى ينبع على البحر الأحمر عام ١٨١٩م، جمعها من سجلات حكومة بومباي ب . ريان راسك، ترجمها أنس الرفاعي، أشرف على طباعتها وحققها ونشرها سعود بن غانم الجمران العجمي، الكويت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

في تاريخ آل سعود ؛ بل كان خيانات محلية لمحادّة دولة التوحيد .. قاومها القادة المؤمنون على يد الإمام فيصل وابنه عبدالله وهم في حالة ضعف شديد ، وأخذت تلك الخيانات طابعها الرسمي العلني منذ الفتنة التي حصلت في نهاية الدور الثاني .. ولم يكن عبدالعزيز - بعد هذا الطابع الرسمي العلني - مستولياً على عرش دولته (المملكة العربية السعودية الآن المعترف بها رسمياً) ؛ ليعمل ما هو عليه أقدر ، وما هو به أعلم من الضغوط العسكرية والسياسية .. إنما كان يهادن قوى الشر المتفوقة عسكرياً ومالياً أمام زحف يقوم به على رقعة لم يُوحّدها بعد ، ولم تقع تحت يده بعد ؛ ليكف عما ليس في تفكيره ابتداء ، وليس في قدرته ضم محميات ليست من تاريخ أسلافه المباشر ، وقد أخذت صفتها الاستعمارية الكريهة من إخراجات محلية قانونية بطوع اختيارها !! .. على أن عبدالعزيز رحمه الله جسّ النبض ، واصطنع حكمة العرب : «لم أمر بها ولم تسأني» في حادثة الجهراء ؛ فرأى هو وأرى غيره : أن هذا الأمر فوق الطموح .. بل كان رحمه الله (بمراوغات سياسية، ومبادرات عسكرية) يختلس انتصاراته في ضم بلاد لا شبهة فيها لأجنبي إلى حظيرة الدولة الإسلامية ، وبعد النصر العسكري ببذل أضعاف جهده في تسكيت القوى الكبرى في شكل مراسلات ومحادثات ؛ فهو طيلة نصف قرن في جهاديين متلاحمين : جهاد عسكري ، وجهاد سياسي .. إن القوى التي تتابع عبدالعزيز إنما تتابعه متابعة من لا يريد عودة عبدالملك بن مروان ، أو هارون الرشيد .

### عبدالعزيز والوعي التاريخي والفقهية :

قال أبو عبدالرحمن : لقد أنقذنا الله على يد الملك عبدالعزيز رحمه الله من ظلمات الجهل ، وروعات الخوف ، وسعى في تحصيل الأسباب الدنيوية المشروعة في مكافحة الفقر ، والمرض ، وتنمية القدرات البشرية وتوحيدها .. تحسبه عامياً

كأبناء جيله : فتكشف لك سيرته ورسائله عن وعي عميق لجُيِّ بمتغيرات العالم ، ونور فراسة صادقة عن أحواله المرتقبة .. وتحسبه مجرد طالب مجد ، واستعادة تاريخ سليب لأهل بيته وأسرته : فتكشف لك سيرته وتطلعاته ورسائله عن آفاق أوسع وأبعد مدى من مجرد زعامة تدين لها العربان !! .. بل كان منطلقه من زعامة دانت لها العرب قرابة ثلاثة قرون ، ومتعذر أن تدين لغيره إلا بفرقة وانقسام : فجعل هذا الحق التاريخي الجزئي منطلقاً لأبعاد - يحملها قلب هذا الكهل الفطري - لا تقنع بغير اجتماع على عقيدة وشريعة يستوي في ظلها والاحتماء والانتفاع بها الأبيض والأسود .. ولا يقنع بغير كيان (من سعة الأرض ، وكثرة القوى البشرية) يتم به مفهوم الدولة.. وأي جزءٍ من رقعة هذه المملكة يُسترضى به ممكن أن يُرضى زعيماً كان شريداً مسلوباً : فحصل له جزءٌ من الأرض والأعوان والسيادة فيهم .. ولكن سيرته ، ومواقفه مع المندوبين ، ورسائله - ولا سيما المتبادلة مع الريحاني :- كشفت عن كهل خبر الحياة حلوها ومرها .. عالم بدين ربه في تواضع ، مؤمن غير موارد في إيمانه .. ومعنى عدم المواردية أن بعض فترات الضعف التاريخي تجبره على الرضى بما هو دون طموحه، وإخفاء ما يريده من انطلاق أبعد .. لكنه حال القوة والضعف معاً لا يساوم على إيمانه، ولا يخفي أن هدفه جمع الرقعة صغرت أم كبرت .. وجمع أهلها قلوباً أو كثروا .. جمع كل أولئك على عقيدة الإسلام وشريعته دون فصل بين الدين والدولة ، أو الدين والحياة العامة .. لم يساوم ألبتة ، ولم يقبل المزايدة بأي نظام حكومي سياسي .. ومعنى سياسي أن يكون مرضياً لدعاية المعسكرين المنتصرين في الحربين الكونيتين عندما شجَّعا حكومات الاستقلال السوري على أنظمة حكومات علمانية بدعايات مختلفة تُسقط حق فاطر الأرض والسموات ، وتدعو إلى ما يُدمر الخلق من إرواء حريات الشهوات والشبهات ، وتمنع

من وصل التاريخ - حسب القدرة - بحكومة رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ، ثم الملك المتوارث من معاوية إلى عبد الملك إلى هارون الرشيد إلى صلاح الدين .. وما جعل الله الملك عيباً شرعياً إلا أن يكون ملكاً عضوضاً ؛ بل كان داوود وسليمان عليهما السلام نبيين مَلَكَيْنِ كريمين ، وقد امتن الله على بني إسرائيل بأن جعل فيهم ملوكاً .. وكان مفهوم الحكومة الإسلامية الحقيقي (في كمال الخلافة الراشدة، وبعض نقص في الحكومة الملكية الإسلامية) : أن عُلِنَ المسلمون معصوم من ظهور المنكر استباحة، أو تنظيمًا ، أو حماية .. وأن الفتوى الشرعية عامرة ، والقضاء الشرعي لازم ، والحسبة الشرعية منصورة مدعومة ، وحلقات المساجد والمدارس والرباطات مُدَلَّلَةٌ : بالأوقاف ، وبذل الأغنياء ، ودعم الدولة، ورعاية الأكابر .. وأن حكومات المسلمين الملكية دولة واحدة في مواجهة الصليب ، أو التتار ، أو غيرهما مما يسمى بالعدو المشترك في لغة العصر الحديث .. وهذا التاريخ الإسلامي - من خلافة إلى ملكية - يطنُّ في أذن الملك عبدالعزيز رحمه الله بصوت العجيري والقويز وغيرهما من صحيح البخاري أو البداية والنهاية لابن كثير ، ويتلقاه محادثة من أمثال : عبدالله بن عبداللطيف ، وصالح بن عبدالعزيز ، ومحمد بن إبراهيم ، ووالده، وعمه محمد .. ومن أمثال ابن عتيق ، والعنقري ، وابن بليهد ، وغيرهم .. وكان من ماثور تتلمذه في الصبا على مؤلفات شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ، ومؤلفات العلماء من بعده ورسائلهم: أن حكم الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم عهد واختيار .. عهد من ولي الأمر ، واختيار ممن حضر من أهل الحل والعقد .. بأول يد تصافح بالبيعة تصبح البيعة لازمة بلا اختيار لمن حضر أو غاب ، ولكن البيعة مشروطة بالعمل بالكتاب والسنة .. والكتاب والسنة حدًّا مواضع السمع والطاعة والانقياد ، ومواضع الحسبة .. على أن السمع والطاعة للحاكم المسلم

أخص من عموم الحسبة ، وحددا براءة الذمة والتغيير بكفر بواح متعمد لا يزيله النصح .. ومعاوية رضي الله عنه لو انقاد لعلي رضي الله عنه لكان خيراً له في خاصة نفسه .. على أن الله جمع المسلمين على يده ، ولم تذهب ريحهم .. ولما أخذ الأمر غلبة أصبح ملكاً ؛ فلو صرف الأمر من بعده لغير أهل بيته لكان في ذلك فتنة وفرقة ؛ لأن الشام ومصر والعراق والحجاز والممالك الإسلامية اجتمعت على هذا الملك ، وأصبحت العصبية لأمية من قريش .. ولو فعل لكان كل قطر يستقل بأميره الذي ألف منه حسن السياسة والمدارة والصبر والبذل ؛ بتدبير الله ثم تدبير معاوية نفسه الذي حرص على أن يكون عماله نسخة منه حليماً وسياسة وكياسة .

وبغير تاريخ آل سعود (بعد الله) ما كانت الجزيرة لتدين لرجل واحد - مع ما عرف عنهم من الأنفة من الدينونة لزعيم لا دعاية له إلا الزعامة وحب المجد الدنيوي .. وما عرف عن واقعهم من التمزق إلى إمارات قرى أو أقاليم ، أو مشيخات قبائل - .. وتاريخ آل سعود الذي قام عبدالعزيز بإعادته تاريخ أمة كانت مجتمعة على دولة ، ودين ، وجهاد ، وتمدين ، وتنمية في الأرض والقوى البشرية علماً وعملاً .. وهو تاريخ كل فرد يطالب بحقه في الأرض والعمل والجهاد وإتاحة الفرص للكفاءات والمهارات .. بل كان هذا طموح منهم خارج حدود المملكة العربية السعودية ؛ فعلى سبيل المثال كان عام ١٣٦٥هـ عاماً تحققت فيه الوحدة والدولة ، ولكن الموارد كانت شحيحة ، والتنمية البشرية في بداية الانفتاح والعمل والتطلع .. ومع هذه الظروف كانت المملكة مطمح كاتب العربية الكبير إبراهيم عبدالقادر المازني في ملمحين مهمين : أولهما أن تكون السعودية قدوة في الأمن ، وثانيهما أن تتوسع حدودها ؛ ليغتم العرب أكبر قدر من الوحدة .. قال المازني عام ١٣٦٥هـ : «فليس بين الدول العربية - إذا استثنينا المملكة العربية السعودية - دولة آمنة أو

مطمئنة على حقها وحريتها ، أو في فسحة من أمرها تسمح لها بالتخلي للعمل على العناية بمراشدها .. وحق الدولة العربية السعودية [أن] لا ترى أن لها أن تطمئن إلا إذا أدركت بعض الغايات ، ومدت حدودها هاهنا وهاهنا بعض المد ، واستولت على بعض الموانئ - مثل العقبة - <sup>(١)</sup> أو البلدان ، وضمنت خلوص النية وصدق السريرة من هذه الناحية أو تلك ، ووقفت في بعض المساعي مثل الحيلولة دون قيام دولة صهيونية في فلسطين ، ومثل تحقيق مشروع سورية الكبرى <sup>(٢)</sup> إذا كانت له صلة بشرقي الأردن .. ولا يلام أحد على الحذر الذي يدعو إليه الدفاع عن النفس ، وقد ذكرنا بعض ما يشغل الدولة السعودية على وجه الإجمال ؛ لنقول : إنه حتى هذه الدولة (التي لا تستطيع أن تكون في أمان من عدوان الدول الغربية عليها) لا تخلو مما يقلقها» <sup>(٣)</sup> .

قال أبو عبدالرحمن : إن التاريخ الإسلامي - حقبة خلافة راشدة قصيرة ، وحقبة ملك إسلامي مديد - كان تربية مُعاشة من كل مناحي تربية الملك عبدالعزيز ، وكان الانطلاق من التاريخ السعودي الإسلامي الذي دانت له جزيرة العرب هو المنطلق الذي انطلق منه عبدالعزيز ، وكانت خصائص ذلك التاريخ من اجتماع على الدين والمصالح الدنيوية والأخروية هي التي تجعل كل امتداد في الرقعة مكسباً للأمة يرجو به ربح المنقلب .. ولا ريب أن توسع الفرد في الخير والحق يعود بآخرة إلى مجد له ولآل بيته .. وقد أبت سنة الله الكونية (إذا مكن للمصلحين، وأورثهم خلافة أو ملكاً) إلا أن تجعل ذلك مجداً دنيوياً لهم ولبيتهم مع ما يرجونه في الآخرة من ربح

(١) انظر الحاشية آخر البحث رقم (٨) .

(٢) انظر الحاشية آخر البحث رقم (٩) .

(٣) مجلة حديقة الأفكار/ السنة الأولى/ الجزء السادس الصادر في شهر ربيع الآخر عام

١٣٦٥هـ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .



المنقلب .. وقد حرص عبدالعزيز أن يتأسى ما يقدر عليه من أحوال الخلافة الراشدة ، وأن يحقق أمثل وأنجح ما وعاه من تاريخ الملك الإسلامي منذ بني أمية . وأن يأخذ ميزات تاريخه السعودي، ويضيف إليه قصارى ما يملك من امتداد في الرقعة ومثالية في الحكم .. وقد رضي بطوعه واختياره وكامل رضاه أن يحدّ ويقيّد كل نزعة فردية - لا يخلو منها حاكم - بإعلان سيادة النص الشرعي اعتقاداً وتطبيقاً، وتقديم كلمة القائمين عليه من علمائه العاملين ؛ فكانت بيعته ابتداء وتجديداً على يد العلماء، ولم ينفصل حكمه لحظة منذ دخل الرياض عن حضور ومشورة ومشاركة من أشير إليهم بالعلم والعمل .. بل كان عبدالعزيز يعلن معاناته من غياب واحد من هؤلاء تقتضي الظروف ندبه إلى مهمة .. أو لم يقل رحمه الله لأمير رنية وأحد كبار الأشراف : «أوصيكم ونفسي بتقوى الله، وطاعته ، والامتنال لأمره ، واجتناب ما نهى عنه .. وتفهمون أن لا استقامة في أمر الدين والدنيا إلا بالتحاب في الله وعدم الاختلاف .. قال سبحانه وتعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران/ ١٠٣] .

والذي علينا وعليكم شكر الله على نعمة الإسلام الذي رضيهِ الله لكم ، ومنّ عليكم بقبوله .. معنى الإسلام الاستسلام لله ، والانقياد له .. ولا بد أن كل شيء له حقيقة ، وحقيقته [يعني الإسلام] أن يكون الفعل موافقاً للقول .. تفهمون أننا ولاة أموركم .. ما عندنا إن شاء الله شيء من الأمور [إلا] التي [ما] لنا فيها هوى أو قصد يخالف الشريعة ، إنما قصدنا أن تكون كلمته [أي الله سبحانه] هي العليا ، ودينه هو الظاهر .. أيضاً قصدنا راحة المسلمين .

ولما بلغنا عنكم بعض الاختلاف حقيقةً تكرر الخاطر؛ لموجب أن التخالف في أمر الدين ، والتمادي في الجهل : يخل في أمر المسلمين ؛ لذلك كلفنا الشيخ

عبدالعزیز (١) - ولو أن ذهابه عنا مشقة علينا ، وصعوبة عليه .. لكن أجبرنا على ذلك محبة لسكونكم وراحتكم ، وتبييناً للجاهل ، وزيادة توضيح للعارف العاقل ، وحجة على مخالف الأمر - ، وألزمنا على حضوره بحضور الشيخ عبدالرحمن بن داوود (٢) ، والشيخ عبدالرحمن بن ناصر (٣) .

هكذا يعلن عبدالعزيز عن المشقة التي تحصل له من غياب عالم كبير من مجلسه .. على أن كثيراً من ملوك المسلمين (في لحظات الضعف والقرب من مدلول «عضوض») يحرصون على إبعاد الفقهاء عن محل نقضهم وإبرامهم ، وربما تسلي بعضهم بحضور الشعراء والأدباء اللاهين ، وغواية الفن ، وتوددوا للعلماء فرداً فرداً - أي على انفراد كل واحد منهم - في سويغات مجاملة ، وربما جمعوهم في مناسبةٍ مظهراً أمام العامة .. أما عبدالعزيز آل سعود فيشق عليه أن يغيب عن مجلسه عالم مثل الشيخ عبدالعزيز .

والملك عبدالعزيز يعلن مسبقاً لمن أريد اصطلاحهم على الحق أنه لا ينبغي غير سيادة الدين، وتحكيم مفهومه الذي يعرفه العلماء؛ ولهذا فهو راض مقدماً بما انتهوا إليه . فهل بعد هذا الصدق من صدق ؟ يقول رحمه الله : «فيجب عليكم أن تجتمعوا - أعني أنت الأمير، وجماعتك - ، وتبينوا جميع ما أشكل بينكم، وتستفتوهم فيه .. ونحن راضون ، ومقدموهم في جميع الأمور، ومعتمدون على الله ثم عليهم ؛ لو ثوقنا بالله ثم بهم» (٤) .

(١) من المحتمل أن المراد الشيخ عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن ناصر ابن بشر [١٢٧٥ - ١٣٥٩هـ] ،

(٢) هو الشيخ عبدالرحمن بن محمد بن حمد بن داوود [١٣٠٠ - ١٣٥٥هـ] .. انظر عنه : علماء نجد خلال ثمانية قرون ٣ / ١٥٧ - ١٦٢ .

(٣) لسراة الليل ص ١٦٣ .

(٤) المصدر السابق ص ١٦٣ - ١٦٤ .. ولا أدري هل المراد عبدالرحمن بن محمد بن ناصر الخريف ، أو عبدالرحمن بن ناصر ابن فرج ، وأستبعد أن يكون المراد المؤرخ .

وليست ثقة عبدالعزيز بعالم الشريعة ثقة عمياء مغلفة باعتقاد العصمة!.. كلا .. بل ثقته بهم ابتداءً عن سابق علم بصلاحهم سيرةً ، وكفاءتهم علمياً .. يكون ذلك بعلم عبدالعزيز وتجربته الشخصية ، ويكون بتزكية زملائهم وشيوخهم وتلاميذهم وميل الناس إليهم .. ويكون ذلك انتهاءً بما تنتهي إليه آراؤهم : فهم يكشفون عن الواقعة، ويبينون حكم الشرع فيها .. ولنتائجهم معيار يزنها : فإن انتهوا إلى كشف غير صحيح عن الواقعة فلأهالي على حق المعارضة والمطالبة بكشف الواقعة على وجهها الصحيح بمنتدبين آخرين ، والحكم الشرعي في الواقعة إذا بينوه لعبدالعزيز فإنه يشاركهم - تعلماً ، وممارسة - العلم بما أخذه ، ولديه كبار العلماء يراجعهم فيما أشكل عليه من ترجيح حكم القاضي أو ترجيح غيره .. وهذه التفصيلات عن مدى الثقة بالعالم الشرعي وردت بالملاح وتقنين موجز، ولكن فيه الكفاية .. قال رحمه الله في نفس الموضوع الخاص بفيحان بن صامل وجماعته: «إن أميركم يكون فيحان بن صامل، وقاضيكم الشيخ عبدالرحمن [أي ابن ناصر رحمه الله] كما رضيهم المشايخ ورضيتموهم .. فأما الإنسان الذي يعلم عليهم خللاً في أمر دينهم أو دنياهم فلا يخفيه.. أما الأمر الكبير الذي يوجب عزلهم: <sup>(١)</sup> إذا تبين للشيخ عبدالعزيز يعزلهم .. وأما الأمر الذي دون ذلك فينهاهم عنه وأنتم تسمعون» <sup>(٢)</sup> .

وبعد أن توعدَّ الملك عبدالعزيز رحمه الله من خالف أمير بلده وقاضيه عقَبَ مستثياً بقوله : «ما عدا رجلاً يرى خطأً من الأمير أو القاضي ؛ فيجب أن يجيئهم ويناصحهم بينه وبينهم ، ويستشهد بأهل العقل والمعرفة .. فإن قبلوا فالحمد لله ، وإلا فيرفع الأمر إلينا بأن يأتي بنفسه ، أو يكتب رسالة .. لكن على شرط أن يكون

(١) تلزم نقطتنا التقسيم والتفريع هاهنا ، ليعلم أن ما بعدهما جواب لا قيد .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٤ .

بلا مخالفة [يعني للواقع] ، ولا مشاحنة أيضاً ، وليحذر التزوير ..» (١) .

هذه ديموقراطية عبدالعزيز التي هي حكم الشرع للشعب .. الشرع الذي رضيته الجماعة ، وقاتلت من أجله ، وحمل الناس على السوية فيه (٢) .. ومن أصول هذا الدين إجماع أهل الحل والعقد والعلم ؛ لتحقيق المصالح الدنيوية الراجعة إلى النظر المشترك .

وليس في تعيين عبدالعزيز لعماله أمر تعسفي .. إنما كان يشاطرهم الرأي ، ويبذل لهم وسائل الإقناع فيمن وثق به واختاره لهم ، ويفتح باب التجربة والنقد أمام مستقبلهم ، ويبعث بكبار العلماء والعقلاء ينقلون له الصورة الصحيحة ، ويقومون له عماله وما طراً من نقد الرعية لهم .

ولم يكن أمر تعيينه قراراً جافاً ليس فيه إلا الرقم والتاريخ وإرادة غير معللة ، بل كان يُذكر عماله بمقتضى القواعد والأصول التي عُيِّنوا من أجلها .. يقول لأمير رنية : «أما أنت يا فيحان بن صامل فأنت أمير مطلق بأمر الشرع .. ورجع أمورك كلها لشرع الله ، وإياي وإياك أن يأخذك الهوى على أحد .. كن خادماً للشرعية ، واجزم على ما أمرتك» (٣) .

قال أبو عبدالرحمن : كيف لا يأمر عبدالعزيز بذلك وهو نفسه خادم للشرعية .. ولما وجه الملك عبدالعزيز نصائحه للقاضي ابن ناصر : نوّه بما هو نصب عينيه دائماً من الرأي المشترك : «والكلام موجه للجميع .. للأمير ، والقاضي، والجماعة» (٤) .

(١) المصدر السابق ص ١٦٤ .

(٢) انظر الحاشية آخر البحث رقم (١٠) .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٤ .

(٤) المصدر السابق ص ١٦٥ .